الفصل الثاني

صدام الحضارات
النظريات والآفاق

الإسلام و «صدام الحضارات»

لم تكد الحرب الباردة تضع أوزارها حتى بادر المفكرون والمنظّرون إلى وضع تصورات جديدة حول أسس سياسة ما بعد الحرب الباردة، وحول القواعد التي يمكن أن تقوم عليها استراتيجيات المستقبل.

لم يحدث السقوط الشيوعي والتمزق السوفياتي بسرعة كبيرة فقط، ولكنه حدث قبل توقعه، لذلك وجدت عملية التنظير لمرحلة بعد هذين السقوط والتمزق نفسها تلهث وراء المستجدات والتطورات التي سرعان ما عصفت بالمجتمعات المختلفة في كل أنحاء العالم.

اتخذت هذه العملية، ولم تزل، طابعين أساسيين. الطابع الأول هو المبادرة إلى وضع معادلات جديدة لنظام عالمي جديد. أما الطابع الثاني فهو محاولة وضع تفسير احتوائي للتطورات الجديدة بحيث يكون التفسير في حد ذاته إطاراً لاستراتيجية النظام الجديد.

البعد الاستراتيجي للصراع، ثقافة العولمة:

قد يقصد بثقافة العولمة: الإطار المعرفي الذي يجعل النظام الرأسمالي مقبولاً من سائر الشعوب، ولا يكون في هذه الحالة في صورة ظاهرة تتمثل في إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالي فحسب، بل إعلاناً للتكييف من قبل مفكرين استراتيجيين مخططين

لوضع دعامات فكر بعينه ييسر تقبل فكرة الانخراط في حركة الرأسمال وسيرورته كما يحلو للغرب أن يسيره، وقبول الخصخصة والتجاوب مع آليات سوق رأس المال، وكل شروط منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي وسائر هذه المنظمات.

ثم لا يتوقف الأمر عند هذا الحال، فلا بد من قبول التغريب وهو ما درجت الاستراتيجية الأمريكية على تسميته: السلام الأمريكي باعتباره قرين أصغر للسلام العالمي، وتبريرهم لكل هذه الفروض، ضرورة اللحاق بالتقدم، وتحقيق السلام العالمي، وحقوق الإنسان. لم يعد الإنسان في ظل هذه المفاهيم مسؤولاً عن صنع تاريخه، بل مضطراً للتكيف مع الطوابع الاجتماعية والثقافية، والإقرار بالواقع القائم على مفهوم الحرية الفردية كما تصورها الرأسمالية الغربية أو تشكلها.

الكلام في ثقافة العولمة متشعب، ومن الصعب حصره أو الإلمام به، ولكن يمكن القول: إن الإطار الفكري أو الثقافي لأفكار دعم الرأسمالية يعمل بدأب على إقناع الشعوب بموافقته للعقل؛ لأنه يحقق رغبات الأفراد بحرية مطلقة، وإذا اعتبرنا أن هذه الأفكار تقف على قاعدة أساسية تمثل نظرية خاصة بالمجتمع الرأسمالي، فإن هذه النظرية «تزعم أن الرأسمالية مشروعية أزلية، بحيث صارت نظاماً يمثل (نهاية التاريخ)»[1]. كما أطلق عليه (فرانسيس فوكوياما)، لا يقتصر على قاعدته الاقتصادية، بل ينحو إلى إيجاد نظرية متكاملة، وإن كان الاقتصاد قاعدتها، فإن أركانها تقوم على تحقيق رغبات أفراد المجتمع، كما تفرض أنماطاً اجتماعية وسياسية وثقافية، وأنماطا معيشية تمتزج بالقاعدة وتتفاعل معها لتصنع نمطاً رأسمالياً معولماً، يخبئ في بطنه رغبة

---

(١) سمير أمين: بحث مناخ العصر رؤية نقدية، ص٢١ كتاب العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، نشر مركز البحوث، الجمعية العربية لعلم الاجتماع- ١٩٩٩- القاهرة.

كامنة تظهر وقت الحاجة، عندما يشعر أصحاب النظرية الرأسمالية بخطر يتهددها، وعند ذلك تكشر الرأسمالية عن أنيابها، وتكشف مخالبها كما حدث في حرب الخليج، ومحاصرة شعوب العالم الثالث واتخاذ قرارات تعسفية إزاء رفع دول الخليج لأسعار البترول وفي فرض الخطر النووي على الدول الإسلامية وتهديدها بشتى العقوبات. وهكذا فإن الرأسمالية تفرض نفسها على الشعوب بما يتلاءم مع مصالحها، ويقف سياسيون محترفون، ومثقفون استراتيجيون وراء فرضها على العالم وفي مقدمة هؤلاء (فرانسيس فوكوياما) Francis Fukuyama كتاب نهاية التاريخ The End of history and The last Man و(صمويل هنتجتون) بكتاب: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالميThe clash of Civilizations and the Remaking of World Order و(بول كيندي) بنظرية الهيمنة والدولة المحورية Pivotal Srate وهي أفكار رئيسية تعضد نظرية العولمة الأمريكية، وربما تعضدها أعمال أخرى لمثقفين استراتيجيين من النوع نفسه، إلا أن هذه الأعمال تقوم بدور المحاور الأساسية، فإذا كان ثمة أفكار أخرى فهي تدور في فلكها.

إن ثقافة العولمة ثقافة أمريكية بالدرجة الأولى. والثقافة الأمريكية ثقافة برجماتية أداتية عملياتية، سواء في إطارها المعرفي العام أو في جزئياتها داخل الإطار المعرفي العام، ترمي إلى تفعيل البعد النفسي للفرد فيقبل كل متواضعاتها، وإن أثر ذلك سلباً في البنية الاجتماعية الموضوعية.

إن هذه الثقافة تخدم ثقافة السوق الاستهلاكية طبقاً للصورة المهيأة للعالم من المنظور البرجماتي، ومن ثم فهي تهيئ الفرد نفسياً وسلوكياً ليكون خاضعاً لآلياتها، مستجيباً لمتطلباتها، دونما تفكير في الاعتراض أو التعديل.

ومخططو هذه الثقافة في مجالاتها التسويقية لا يعنيهم احترام البعد الأخلاقي في

الإنسان، بقدر ما يهمهم نجاح خططهم في تحويل كل المجتمعات إلى مجتمعات مستعدة لقبول هذه الثقافة وتسويقها حتى و لو سحقتهم آليات السوق الجهنمية، فهم يكيفون الفرد لآلياتهم المعرفية فيعيش في حلم الخلاص الفردي، دونما إحساس بما يمكن أن يتعرض له الأفراد من سحق السوق المعولمة الوحشية لهم، فهذه الثقافة الأداتية تجعلهم يعيشون في حلم الخلاص الفردي الذي يحقق للإنسان ذاتيته نفسياً وسلوكياً، ويعيّشه في وهم الصعود الثقافي باعتناق ثقافة الديمقراطية الحرة بمفاهيمها التي تُقصي التراث الديني والثقافي للفرد إقصاءً يطمسه في مشاعر الوهم الذاتي كما تجعله في الوقت نفسه يعيش في وهم الصعود الاجتماعي الاستهلاكي، وينتهي به الحال إلى تمزيق العلاقات الإنسانية التراحمية، لتحل محلها العلاقات التعاقدية النفعية.

ولا يجب أن ننسى مهمة الفلسفة الدورانية وأثرها في الفلسفة البرجماتية الأداتية، فهي تقوم بدور فعال في إحياء هذه الأفكار وتطويرها بحسب البيئات المختلفة لضمان استمرارها، وفي الوقت نفسه تعمل بدأب لهدم الأفكار التي تعمد إلى فضح الأفكار الرأسمالية أو تعريتها.

حتى الفنون الجميلة تخضع للمنطق نفسه في ثقافة الديمقراطية الليبرالية. فإن الأدب والفن يجب أن يكرسا رؤيتهما للعالم بتطويع الإنسان نفسياً لمواكبة موكب الخلاص النفسي المتخيل في ثقافة الديمقراطية المعولمة يقول (فوكوياما) بصراحة: «إن تقاليدنا النفعية في الولايات المتحدة الأمريكية تجعل من الصعب حتى على الفنون الجميلة أن تصبح شكلية محضة؛ ولهذا يجب أن يسعى الفنانون إلى إقناع أنفسهم بأن عليهم مسؤولية تجاه المجتمع، بالإضافة إلى التزامهم بالقيم الجمالية»[1].

---

(١) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر ص٢٧٩، ترجمة د. حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣.

فرانسيس فوكوياما ونهاية التاريخ

لعل (فوكوياما) أراد أن يوجه أنظار مواطني العالم إلى ما تصوره حقيقة واقعية عالم ما بعد الحداثة الذي تسيطر عليه (الفزيوكيميا).

(فرانسيس فوكوياما) ليس صاحب نبوءة بقدر ما هو صاحب بصيرة برجماتية لما انتهى إليه فكر العالم وثقافته في الغرب، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. التي تقود طبقة جديدة من صانعي العلم والثقافة الفاعلة الذين يريدون تخليق عالم بكل محتوياته من البشر، ومن المخلوقات الأخرى الحيوانية والصناعية بحسب قدراتهم العلمية والثقافية والاقتصادية. صحيح أنهم يبالغون في سلوكهم الأناني الممتلئ بالغرور، إلا أنهم لا يقبلون أن تقف قوة ما في العالم دون توسعهم الاقتصادي والثقافي.

وفي مقدمة مخططهم: حجب بصر الناس وعقولهم عن الماضي الديني، والثقافي؛ لأنه لم يعد ملائماً - بزعمهم - أن يتمسك الناس بضوابط حياتهم القديمة؛ لأن الضوابط القديمة مثل: الدين والأخلاق وثقافة الماضي، وتقاليده الاجتماعية لم تعد متلائمة لفكرة (نهاية التاريخ وخاتم البشر).

إن قواعد التفكير الحديثة في الغرب تزلزل ثوابته القديمة.

إن ثقافة: الاستنساخ، وحرب الجينات تنذر بنهاية الأسرة كبنيان راسخ، مع نهاية التاريخ.

ربما يكون للعامل النفسي لدى الشعوب، قوة تأثير في ذلك، فعالم بلا أرومة، يعيش فوق أرض لم يكن يملكها منذ بضعة قرون لا يعنيه أن يشارك الشعوب العريقة في إنشاد نشيد الأعراق وعظمة الأصول فصاح صيحة مدوية: يجب أن يتوقف التاريخ، وأن يصمت منشدو نشيد الأعراق؛ لكي يبدأ تاريخ جديد يمثل مثلاً علية جديدة لا قيمة

فيها ولا ثمن للدماء القديمة، ولا للأعراق التي كانت تجري فيها من آلاف السنين، فلم يعد هناك وقت للتغني بالدماء النقية والأصول العريقة والوراثة؛ ليبدأ العالم إنشاد أغنية جديدة يتغنى فيها بعظمة الكائن الجديد، مهما كانت خطورته على مستقبل الإنسانية، ومهما كانت الرؤى والتساؤلات.

إن (فرانسيس فوكوياما) واحد من أكبر الداعين للرؤى الجديدة في الولايات المتحدة الأمريكية ورؤاه لا تقف عند نهاية الأيديولوجيات القديمة بقدر ما تقصد فتح أبواب المستقبل لعصر الثقافة الحيوية التي تغير كل شيء في الإنسان بدءاً من صفاته الحيوية وما يترتب عليها من تحولات في طريقة التفكير والسلوك. ومن هنا يعرف الناس كل ما يدور في فكر (فوكوياما) الذي اشتهر بنظرية (نهاية التاريخ وخاتم البشر) مع أن له أفكاراً أخرى أشد خطورة، في إرادة التحول في الجنس البشري [الذكوري والأنوثي].

لقد عزا (فوكوياما) نهاية التاريخ في السياسة والاقتصاد إلى سقوط جميع النظريات باستثناء الرأسمالية الفردية المتجهة نحو العولمة، فهو يضع نهاية أخرى للتاريخ أشد قتامه لوضعية الجنس البشري ذاته داخل مفهوم الغرب للحرية الفردية.

(فرانسيس فوكوياما) أمريكي من أصل ياباني، وأحد منظري العولمة الأقوياء مهد لها بكتابه (نهاية التاريخ) ١٩٨٩م فقد رأى حتمية انهيار الشيوعية بالاتحاد السوفييتي، أكبر القوى المناهضة للولايات المتحدة الأمريكية في العالم منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م حتى نهاية العقد التاسع من القرن العشرين، وبالتالي انهيار النظام الشيوعي في العالم بدءاً من شرق أوربا، وهذا الانهيار بمثابة انتصار حاسم تحققه الرأسمالية الغربية، وهذا بنظر (فوكوياما) لا يعني مجرد انتصار قوة على قوة مضادة، بقدر ما هو انتصار لنظام حسن على نظام سيء، فضلاً عن أن هذا النظام الحسن (الديمقراطية

الليبرالية) يعمل من أجل إنعاش البشرية - في تصوره - وإنهاء الحرب الباردة بين القوتين الأعظم في العالم.

ويدلل (فوكوياما) على سمو النظام الغربي بنمطه العام الفائق في مجال التقنيات، وجميع المؤسسات الاقتصادية والمالية والتجارية والثقافية والاستهلاكية. أي جميع المؤسسات التي تحقق الرفاهية في ظل النظام الديمقراطي على النمط الأمريكي، الذي أثبت تفوقاً على كل النظم والمجتمعات - برأي (فوكوياما)- الذي رأى أن التحديث، وسيادة الديمقراطية كنظام سياسي، يحقق النزعة الفردية الإبداعية والتجانس في القيم الأخلاقية.

الديمقراطية في تصور (فوكوياما) ليس مجرد نظرية لنظام حكم في بلد من بلدان العالم، بل نظام ترغب الولايات المتحدة في تطبيقه في العالم؛ لأن الأمر في تصور الفكر الشعبي الأمريكي قد تجاوز التصورات الفكرية إلى ضرورة الإجماع في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الرأسمالية، وهو ما عبر عنه (فوكوياما) في قوله: «إن الديمقراطية الليبرالية تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية، والصورة النهائية لنظام الحكم البشري، وبالتالي فهي تمثل (نهاية التاريخ)»[1].

والتاريخ في مفهوم (فوكوياما) ليست في وقوع الأحداث وتتابعها عبر القرون، ولكنه عملية متلاحمة ومتطورة متفاعلة من تجاوب الشعوب في كل العصور كما تصور (توماس هوبز) وكما تبلور عند (كارل ماركس) و(نتشه) وغيرهم من المفكرين والفلاسفة الأوربيين في وصفهم لمختلف أشكال الحكومات: الدينية والإقطاعية والملكية وانتهاءً بالديمقراطية، والرأسمالية القائمة على التكنولوجيا. التي انتهى عندها التاريخ، عند

---

(١) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر ص٨.

النقطة التي يجب أن يتجه إليها البشر لسببين:

- الأول: يتصل بالاقتصاد.
- والثاني: يتصل بما يسمى الصراع من أجل نيل التقدير والاحترام[1].

إن هذه الرؤية منعكسة عن الرؤية الواقعية في الفلسفة الأمريكية ورؤيتها للعالم، لأن النظام السياسي الأمريكي، وكذا التقدم الصناعي ينتج عن إشباع الرغبات الشخصية في الحرية، وضمان حقوق الملكية، وتحقيق حلم الرفاهية وإشباع القوة الشهوانية، والاعتراف بحق الفرد في ممارسة النشاط الاقتصادي الحر، على أساس من الملكية الخاصة، وقوانين السوق الرأسمالية أي اقتصاد السوق الحر.

ويؤكد (فوكوياما) على أن الليبرالية والديمقراطية، وإن كانتا متلازمتين فإنهما مفهومان مستقلان ويمكن إجمال حقوق الفرد في الحرية (الليبرالية) في ثلاثة حقوق رئيسة:

١- الحقوق المدنية، بمعنى تحرير المواطن ممتلكاته من سيطرة الحكومة.

٢- حق المواطن في الاعتقاد، وممارسة العبادة أو تركها.

٣- تحرير المواطن من سيطرة الحكومة عليه، في الأمور التي لا تؤثر في المجتمع.

أما الديمقراطية: فتحقق للمواطن بأن يكون له نصيب في الساحة السياسية [وهو حق ليبرالي أيضاً] يجعل (الليبرالية) وثيقة الصلة بالديمقراطية).

من هنا يرى (فوكوياما) أن تفوق النظام المؤسس على الطريقة (الديقمراطية) الأمريكية، ينهى تاريخ الأيديولوجيات الأخرى، بل يحدد (نهاية التاريخ) ويضعه أمام هيمنة النظام الديمقراطي الرأسمالي بنمطه الأمريكي على أساس أنه أحق بالهيمنة على

---

(١) المرجع السابق ص٩.

العالم، ويؤكد بذلك أن العولمة بحسب (فوكوياما) ثورة رأسمالية عالمية، وإن كانت ذات جذور أمريكية، ستحقق للمجتمع البشري ثورة في التقدم العلمي والرفاهية الاجتماعية، خاصة أن الولايات المتحدة قائدة هذا النظام قد ملكت ناصية العلم، وطرق الاتصال التي قلصت المسافات بين الدول، مما جعل العولمة قادرة على تجسيد وحدة العالم جغرافياً وثقافياً واقتصادياً[1].

إن فكر (فوكوياما) بمثابة خطوة متقدمة في مسيرة الولايات المتحدة في القرن العشرين، القرن الذي تحدد في عقديه الأخيرين مقصود العولمة، خاصة منذ أن نادى الرئيس بوش في يناير سنة ١٩٩١م بالنظام العالمي الجديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكنها من امتلاك إمكانات معرفية ونظماً فائقة للتنمية، ونظم تجارة تعتمد على قواعد ونظم اتصال إليكترونية.

إن النظام العالمي الجديد - الذي نادى به الرئيس الأمريكي (جورج بوش)، وأكمل مسيرته الرئيس (بيل كلينتون) والرئيس (جورج بوش) الابن - هدف أمريكي للسيطرة على العالم، تمثل العولمة ميادينه التطبيقية، ويساند الولايات المتحدة ويعاضدها فيه مؤسسات كونية عظمى مثل: الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة الدولية، وصندوق النقد الدولي، وفوق كل هذه المنظمات حلف الناتو.

وهذا النظام العالمي الجديد يعيد للأذهان صورة النظام العالمي القديم الذي كان يهيمن على العالم في زمن الإمبراطورية الرومانية في التاريخ القديم، ويكاد يماثله، فكما كان النظام في الإمبراطورية الرومانية يقوم على القانون الروماني وحده، فإن النظام الجديد يقوم على مفاهيم الديمقراطية الليبرالية، وحقوق الإنسان في المفهوم الغربي، دون

---

(١) انظر: فوكوياما: نهاية التاريخ ص٥٤-٥٥.

الالتفات لمضامين هذه المفاهيم نفسها في الثقافات الأخرى [مثل الثقافة الإسلامية].

❖ ويقوم النظام العالمي الجديد على وحدات ونظم مثل:

١- الوحدة الوطنية، لكل دولة على حدة.

٢- التكتلات الإقليمية مثل: الوحدة الأوربية، ووحدة دول الآسيان.

٣- العالم وحركة انتقال الأموال، والاستثمارات المستقلة.

٤- الشركات الكونية متعددة الجنسيات، ومتعدية الحدود.

وفي الوقت الذي تخضع فيه الوحدة الأولى والوحدة الثانية، للمساءلة من الدولة المحلية، أو الاتحاد، فإن الثالثة والرابعة فوق أية مساءلة من المجتمع المحلي، أو الدولي.

ومن هنا تفرز العولمة نظاماً عالمياً غير عادل، وغير متوازن، يدفع المجتمعات لرفض متطلعات العولمة، ونتائجها، والتمسك بشكل المجتمع ما قبل الصناعي الحداثي.

لم يكن (فوكوياما) أول مفكر غربي يردد مصطلح (نهاية التاريخ) فلقد ترددت الفكرة في الغرب في القرن الثامن عشر عندما اقترح (كانط) فكرة (نهاية التاريخ سنة ١٧٨٤م) في مقال بعنوان: محاولة كتابة تاريخ عالمي من وجهة نظر عالمية، وضع فيها كل الأسس التي قامت عليها جميع المحاولات لكتابة تاريخ عالمي. وتقوم الفكرة على أساس حركة منتظمة ومتطورة في تاريخ العالم على أساس تراكمي، أي أن كل جيل يستطيع أن يضيف إلى البناء الذي أنجزته الأجيال السابقة إضافات جديدة، ولكن (كانط) اشترط أن يكون لهذا البناء نهاية، أي يصل البناء إلى نقطة نهاية، عندما تتحقق الحرية الإنسانية، ويسود المجتمع حكم القانون والدستور الديني الذي يحقق العدالة بصورة يمكن أن تعمم على العالم.

وقدَّم (هيجل) الفكرة نفسها فرأى أن التاريخ سار في مسار دائم من الصراعات في مراحله السياسية والثقافية المختلفة، وكان الإنسان يتوصل في كل مرحلة إلى التخلص

من بعض هذه التناقضات فيرقى بمرحلته عن المرحلة التي سبقتها، وبذلك كانت كل مرحلة تاريخية أرقى من سابقتها؛ لأنها أقل منها متناقضات (جدلية هيجل).

ورأى (هيجل) في جدليته هذه أن لمسار التاريخ رغم وجود المتناقضات نهاية تحدث عندما يتحقق الوعي بالحرية في صورة مؤسسات سياسية، واجتماعية وثقافية في ظل دولة ديمقراطية.

وجاء (كارل ماركس) فأخذ جدلية (هيجل) ولم يلتزم بمضمونها، ورأى مثل (هيجل) أن للتاريخ نهاية ولكنها تأتي عندما ينتصر الشغيلة في العالم، فتتحقق مدينتهم الفاضلة، وفردوسهم الأرضي.

وفي القرن العشرين نهض فريق من علماء الاجتماع معظمهم من الأمريكيين لكتابة آخر تاريخ عالمي (بعد الحرب العالمية الثانية) تحت مسمى نظرية التحديث، ذهبوا إلى أن التطور الصناعي نمط متناسق النمو، يؤدي في النهاية إلى ظهور بنى اجتماعية وسياسية متشابهة في مختلف الدول والحضارات، ورأت هذه النظرية أن التاريخ غائي، وأن الديمقراطية الليبرالية في الدول الصناعية المتقدمة هي غايته النهائية[1].

ومع أن هذه النظرية تتسم بالعنصرية، فهم يرون أن انهيار كل الأنظمة السياسية مثل: الشمولية والفاشية والنازية حتمي، وبقاء الديمقراطية حتمي، بل دليل على رقيها ومنطقيتها، ومن ثم يجب على التاريخ العالمي أن يقف عندها.

وهذا الرأي الأخير فصلّه (فوكوياما) في كتابه (نهاية التاريخ) ورأى أن نهضة المجتمعات الديمقراطية لن تتحقق إلا بالتصنيع المتقدم؛ لأن التقدم الصناعي أعظم موصل للديمقراطية الليبرالية، كما أن الديمقراطية وحدها هي القادرة على التوفيق بين

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٧٥.

المصالح الاقتصادية المعقدة وطبيعة الاقتصاد الحديث القائم على التوفيق بين المصالح الاقتصادية المعقدة وطبيعة الاقتصاد الحديث القائم على التصنيع الحديث الذي يقوم على أيدي عاملين مثقفين من الطبقة الوسطى، تلك الطبقة القادرة على المشاركة في البناء السياسي الديمقراطي، والمشاركة في الحياة السياسية القائمة على المساواة في الحقوق السياسية، فضلاً عن أن التصنيع يساعد على ارتفاع مستوى العاملين من هذه الطبقة اجتماعياً، بارتفاع أجورهم بسبب ارتقاء أدائهم في المصانع، الأمر الذي يحقق لهم مشاركة فعلية في الحياة السياسية على قدم المساواة مع الطبقة التي تملك أعلى الدخول في المجتمع نفسه.

إن (فوكوياما) يدلل على أن التصنيع المتقدم عامل فاعل في تقدم البحث العلمي، بل لا يتوقف التقدم على إنجازات البحث العلمي الإيجابية، بل يساعد على تقدم مجتمع ونظام سياسي مفتوحين للتحاور الحر، والمشاركة الحرة؛ ذلك لأن الأسلوب الديمقراطي الليبرالي الرأسمالي القائم على التصنيع المتقدم، يمثل أنجح الطرق وأقصرها للوصول إلى نهاية التاريخ.

وهذا النظام الذي سيفرض نفسه على أسواق العالم الاقتصادية والتجارية والثقافية والسياسية، قادر بطريقة (داروينية) في تصور (فوكوياما) على إفناء النظم الأخرى فهو يقول: «علينا أن نقبل حكم السوق على تاريخ العالم، فالمجتمعات يفند كل منها الآخر في هذا الحوار حتى ينتصر واحد منها على الجميع فيبقى ويفنون، فإذا وصل نظام إلى الديمقراطية الليبرالية؛ لأنها الأصلح والأفضل والغاية النهائية، حكمنا بنهاية التاريخ؛ لأن العالم الديمقراطي الليبرالي الحديث خال من التناقضات»[1].

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص١٣٠-١٣٢.

لعالم الإسلامي ونهاية التاريخ في عقل (فوكوياما):

يرى (فوكوياما) أن ثمة اتفاقاً عاماً بين كل شعوب العالم على قبول الديمقراطية الليبرالية على أساس أنها أكثر صور الحكم عقلانية، إلا في العالم الإسلامي[1].

فالإسلام بزعم (فوكوياما) يعد أكبر عقبة أمام الديمقراطية الليبرالية في أن تعم العالم، أو تحكم العالم؛ لأن في المسلمين نزعة عرقية ووطنية مبالغاً فيها، كما أن الدين الإسلامي - بزعم (فوكوياما) - ضد التسامح والمساواة، ولهذا يرى (فوكوياما) أن تركيا هي الدولة الوحيدة في العالم الإسلامي المعاصر التي قبلت الديمقراطية الليبرالية؛ لأنها طرحت التراث الإسلامي، واختارت أن تقيم مجتمعاً علمانياً مع بداية القرن العشرين»[2].

في الوقت نفسه غرقت دول إسلامية أخرى في فكر قومي علماني مستورد من أوربا (مصر - عبد الناصر) الذي تحطم مشروعه العلماني عقب هزيمة سنة ١٩٦٧م.

لكن (فوكوياما) لا يتجاهل البرجماتية الأمريكية وهو يتحدث عن نهاية التاريخ في أثناء حديثه عن الحرب، فهو يراها في غاية الأهمية، بل «العملة الحقيقية في مجال العلاقات الدولية» وهذه القاعدة الواقعية، تحتم اختيار الأصدقاء والأعداء بصفة أساسية في ضوء مدى قوتهم، لا في ضوء الأيديولوجيا»[3]. وهذا الإقرار الأخير من (فوكوياما) الذي لا يخفي تطلعات الولايات المتحدة البرجماتية (الواقعية النفعية) يدلل على مدى احتواء الديمقراطية الليبرالية على صور الشر، وأنها رغم مزاعمها لن تتوانى في فرض نظامها بالقوة إذا حانت الفرصة لذلك، يؤكد ذلك قوله: «سيكون للديمقراطية مصلحة في

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٩.

(٢) فوكوياما: نهاية التاريخ ص ١٩٣.

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠.

حماية نفسها من الأخطار الخارجية، وفي نشر قضية الديمقراطية في الأقطار التي لا توجد فيها نظم ديمقراطية، وستطبق الوسائل الواقعية في تعاملها مع الدول غير الديمقراطية، وسيظل استخدام القوة الحكم النهائي في العلاقات بينها»[1].

ويرى (فوكوياما) في آخر كتاب (نهاية التاريخ) أنه عندما تعمم الديمقراطية الليبرالية بشكلها الأمريكي سيعم السلام، ولعله السلام الأمريكي بالذات في تصور (فوكوياما). وهذا يعني نهاية الحروب، فمادام الناس اتفقوا على غاية الديمقراطية الليبرالية - بزعم (فوكوياما) - تتحقق نهاية التاريخ، حيث يعم الوفاق ويشبع الناس، بفضل النشاط الاقتصادي الرأسمالي الحر، وتكون «حياة خاتم البشر، حياة الأمن والوفرة الماديين»[2].

أما في العالم الإسلامي، فلا توجد قابلية للنظام الديمقراطي الليبرالي - برأي (فوكوياما) - لأن الإسلام يقف عقبة كبيرة في وجه تطبيق الديمقراطية[3] بوضع ضوابط شرعية على ممارسة الحرية الفردية. ولكن فوكوياما. يؤكد وجوب أن تكون الديمقراطية أمريكية في العالم الإسلامي، ويزعم أن الديمقراطية الشعبية التي هيأها الإسلاميون في مجتمعاتهم، ليست ديمقراطية، ولكنها وصول للحكم بطرق أصولية. الديمقراطية الأمريكية ديمقراطية أداتية مثل كل التقاليد النفعية في الثقافة الأمريكية، فهي تضع مسؤولية النخبة تجاه المجتمع التسويقي، وكل الأشياء حتى الإبداعية الفنية يجب أن تخضع لهذه الرؤية الثقافية لكي تكون نافعة، لخلق دور فعال يستسلم للواقع المصرفي الأداتي الداروني الذي تبشر به الولايات المتحدة الأمريكية، وتعمل من أجل تطبيقه في العالم، وإن خالف موروث الشعوب الأخرى الديني والثقافي.

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص ٢٤٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧١.

(٣) المرجع السابق ص٣٠٢.

صمويل هنتجتون وصدام الحضارات

يقول إداورد سعيد: «إن (هنتجتون) خبير في علم تدبير الأزمات، ومن ثم فإن أطروحته - في صدام الحضارات - ليست إلا إحدى التداعيات التي تعيشها الإدارة العسكرية الأمريكية». ومن ثم فإن كتاب صدام الحضارات لـ (صمويل هنتجتون) ليس إلا صرخة أمريكية تهدف إلى إفراغ العالم، وتزييف صورة الحضارات غير الغربية وتشويهها. وتطبيع وعي الإنسان في كل مكان من العالم على تقبل فكرة تمايز الحضارة الأمريكية، وترسيخ فكرة محتواها، وأن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تضيف إلى الحضارات السابقة كما حضارياً جديداً ذا خصائص أمريكية لها فعاليات التنظير والتنبؤ بمستقبل أفضل للأمم.

(صمويل هنتجتون) بهذا الكتاب يهيئ العالم ليشغله بفكرة أنه لا فائدة من الصدام مع الولايات المتحدة على أساس أنها نهاية الحضارات التي يجب أن ينتهي عندها التاريخ تدعيماً لرأى صنوه الأمريكي (فوكوياما) الذي مهد له بكتاب (نهاية التاريخ) أي حتمية أن يتوقف التاريخ عند أمركة العالم، بل أكثر من ذلك، أن يقبل العالم أن تقوم الإدارة بتحريك العالم في مجالات: السياسة والثقافة والاقتصاد والإعلام.

بداية ينسب (صمويل هنتجتون) التاريخ الإنساني للشعوب إلى ثماني حضارات رئيسة هي: الصينية (الكونفوشية) والهندية (الهندوسية) واليابانية (البوذية) والإسلامية (الإسلام) والأرثوذكسية (روسيا وشرق أوربا) والغربية (الكاثوليكية البروتستانتية) والإفريقية (إفريقيا السوداء) واللاتينية (أمريكا الجنوبية).

ويؤكد (هنتجتون) على أن الدين قاعدة أي حضارة من هذه الحضارات سواء كان الدين سماوياً (الإسلام - المسيحية) أو وضعياً (الكونفوشية - البوذية) أي أن الاعتقاد

الديني مؤسس الحضارات والباعث على الصدام فيما بينها، ومن هذا المفهوم ينطلق (هنتجتون) ليبث فكره بترسيخ مقولة فحواها أنه بقدر وعي أهل كل حضارة من الحضارات لمعتقدهم الديني، وتعصبهم له يكون تهيئهم للصدام الحضاري: وبالتالي فإنه يحاول أن يبرهن على أن المسلمين في العالم هم أكثر أصحاب الديانات تعصباً لدينهم، ومن ثم فإنهم أكثرهم استعداداً للصدام.

ولهذا يقول للعالم كله في خطاب تحذيري: «إن الإسلام وعي دون تماسك»[1] وإنه إذا تماسك مع هذا الوعي سيكون خطراً على العالم. إنه بهذه العبارة يحذر العالم من تماسك المسلمين، فهم أوعى أصحاب الديانات لدينهم، ولا يحول بينهم وبين الصدام إلا التفكك والضعف، وفي الوقت نفسه يحذر الإدارة الأمريكية قائلاً: ويل للعالم إذا تماسك المسلمون وصاروا قوة.

(هنتجتون) ليس إلا صوتاً من الأصوات المعبرة عن تداعيات الفكر الأمريكي تجاه العالم الإسلامي مثل (فوكوياما) و(بول كيندي) وغيرهما. وأفكار هؤلاء تتساوى مع أفكار الإدارة الأمريكية وتواكبها. ولقد سبق الرئيس الأمريكي (ريجان) فطالب بتطوير العسكرية الأمريكية، بحيث تسيطر على البر والبحر والجو (حرب الكواكب) ثم جاء بعد الرئيس (بوش الأب) وطالب بضرورة إقامة نظام عالمي جديد، وبلور (فوكوياما) هذه الأفكار في كتاب (نهاية التاريخ) و(هنتجتون) في كتاب (صدام الحضارات).

لقد تواكبت أفكار الرئيس (بوش) (النظام العالمي الجديد) وفكرة (فوكوياما) (نهاية التاريخ) صيف ١٩٨٩م مع فكرة (صمويل هنتجتون) (صدام الحضارات) ١٩٩٣م.

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات، ص٢٨٤، ترجمة: طلعت الشايب، الطبعة الثانية دار سطور سنة ١٩٩٩م.

طرح (هنتجتون) نظرية في صيف ١٩٩٣م على شكل مقال طويل نشر في دورية أمريكية مشهورة - الشؤون الخارجية Foreign Affairs قبل أن يعيد صياغتها في كتاب: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي سنة ١٩٩٦م.

كان الطرح الأول في مقال طويل شغل الناس في العالم كله خاصة في الغرب، وآثار تساؤلاتهم، وكانت السنوات الثلاث كافية لكي يفيد هنتجتون من الآراء الصادرة من كبار المفكرين في الولايات المتحدة، ومن لف لفيفهم من سياسة الغرب، ومفكريهم، وعلى هذا الأساس تطور المقال إلى كتاب مهم خطير.

كتاب صدام الحضارات يمثل حلقة من حلقات متراكمة من الفكر الغربي داخل العقل الغربي بدأ من نظريات العقد الاجتماعي، التي واكبت ازدهار البرجوازية والدولة القومية، وفكرة المجتمع المدني -ونظرية التطور بشقيها الحيوي والاجتماعي- والنظرية الوضعية، والماركسية.

الفكرة التي يقدمها (هنتجتون) ويحذر منها: حتمية صدام الحضارات، على أساس عقدي ثقافي؛ لأنه صدام خطر - برأيه - على السلام العالمي. إنه يمثل تهديداً يخرج من بطون اختلاف الثقافات المنبثقة من الأديان؛ من كيانات ثقافية متضادة. ويرى أن خلاص البشرية يحتم نظاماً عالمياً، هذا من خارج الفكر، أما باطنه ففيه العذاب؛ لأن النظام العالمي المتمثل في حضارة الغرب التي تقودها الولايات المتحدة المنبثقة تحديداً من الكاثوليكية والبروتستانتية تصادم الحضارة الإسلامية.

ومن البداية لا يجب أن ينخدع أحد بمقولات (هنتجتون) التي هي مقولات الغرب، فالمسألة ليست مسألة مبنية على عقيدة وثقافة بقدر ما هي مصالح مادية بحتة وللناس في الحربين الأولى والثانية مثال: فقد تحالفت ألمانيا الكاثوليكية مع الأتراك المسلمين، وحاربت بني جلدتها من الأوربيين الأنجلوساكسون البروتستانت وفي الحرب العالمية

الثانية تحالفت إيطاليا الكاثوليكية مع ألمانيا ضد فرنسا، وتحالفت إنجلترا والولايات المتحدة البروتستانيتين مع فرنسا الكاثوليكية وروسيا الماركسية، ضد ألمانيا ذات الأغلبية الكاثوليكية.

يضاف إلى ما سبق سياسية الغرب الذي يتشدق دائماً بأنه مهد الليبرالية والحرية الفردية وحرية الرأي والتملك، حيال شعوب العالم الثالث، فالغرب يتسلط عليه لنهب ثرواته؛ والتحكم في اقتصاده، وقتل حرية الرأي فيه، وإمداد حكامه بخبراء إحداث الأزمات السياسية والاقتصادية، وبخبراء قمع الإنسان وتكميم الأفواه.

إن (هنتجتون) أحد أدوات النظام الأمريكي (البرجماتي) لا يعنيه من أمر سياسة العالم إلا بقدر ما تحققه أفكاره من ثمار مادية للإدارة الأمريكية، واحتكاراتها الرأسمالية في العالم، ولكن (هنتجتون) مع كل هذا يحاول تغليف نظرية الهيمنة الأمريكية على العالم بغطاء إنساني أمريكي وهمي.

ومن أول صفحات كتاب (هنتجتون) إلى آخر صفحة فيه يتهم الإسلام بالتعصب ويربط بين الإسلام والتعصب من الصفحات الأولى في فصل: (الحقبة الجديدة في السياسة العالمية) التي تبدأ بانهيار العالم الشيوعي (الاتحاد السوفييتي) وظهور الوعي الإسلامي، إنه يربط بينهما في قرن واحد. إنه يربط بين اختفاء تمثال (لينين) رمزاً لزوال الشيوعية في الاتحاد السوفييتي، وتجمع ألفي مسلم في سراييفو عاصمة البوسنة يلوحون بعلم المملكة العربية السعودية وتركيا المسلمتين.

إنهم «يعلنون عن توحدهم مع كل المسلمين، ويقولون للعالم من هم أصدقاؤهم الحقيقيون، وأصدقاؤهم غير الحقيقيين»[1]. وكأن (هنتجتون) أراد أن يقول للغرب زالت

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص ٣٦-٣٧.

الشيوعية عدوة الغرب الصغرى، وولد عدو (الوعي الإسلامي) أكبر خطورة لأنه لا يعتد بالتقاسيم الجغرافية، ولأنه منتشر بكل قارات العالم، بل إنه في قلب كل الحضارات المتباينة. لقد بدأ عقد التسعينيات من القرن العشرين ليظهر الأعداء الحقيقيون، إنهم المسلمون و «إن لم نكره ما ليس نحن، فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن» «وإن أخطر العداوات المحتملة تحدث عبر خطوط التقسيم بين حضارات العالم الرئيسة، والإسلام موجود مع كل خطوط التقسيم في القارات كلها».

إن خطورة الإسلام بزعم (هنتجتون) تكمن في وعي المسلمين للإسلام وحبهم له، وفي فقر المسلمين، وخصوبتهم الإنجابية التي تدفعهم حتماً إلى الصدام مع جيرانهم في خطوط التقسيم الحضاري.

وإذا كانت الصين تسبب خطورة على الغرب بقيادة الولايات المتحدة، فإنها خطورة مقدور عليها؛ لأنها تتمثل فقط في تطوير وسائل الثروة، ووضع أساس قوة سياسية وعسكرية والتمسك بقيم ثقافية خاصة (كونفوشية) ورفض القيم الثقافية الغربية التي تحاول الولايات المتحدة فرضها على العالم. بعكس خطورة الإسلام التي تتمثل في الوعي بالإسلام، والصحوة الإسلامية وتمسك المسلمين بثوابته؛ لأنها أشياء تحدث فروقاً ثقافية قوية ذات تأثير قوي في رفض كل أساليب الغرب ونظمه السياسية والثقافية والاقتصادية، وتهديد الحضارة الغربية التي قامت على أساس الديمقراطية.

من هنا يطرح (هنتجتون) خيار الثقافة الأمريكية: لماذا - بعد نهاية الحرب الباردة - لا يكون هناك عالم واحد منسجم وخاصة أن نموذج هذا العالم متمثل في أطروحة (فرانسيس فوكوياما) (نهاية التاريخ) بما هو نقطة النهاية للتطور الأيديولوجي للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم كشكل نهائي للحكومة الإنسانية.

إنها دعوة صريحة من كل من (فوكوياما) و (هنتجتون) لتجميع كل الشعوب تحت لواء النظام الأمريكي.

ويقسم (هنتجتون) العالم إلى الغرب والآخرين، أي حضارة واحدة ذات ثقافة مخصوصة (كاثوليكية برتستانتية) في مواجهة كل الحضارات الأخرى: الإسلام والكونفوشيه والبوذية والأرثوذكسية، وكلها حضارات تستطيع الحضارة الغربية التعايش معها إلا حضارة الإسلام؛ لأنها بزعم (هنتجتون) تقسم العالم إلى «دار الإسلام ودار الحرب»[1].

ويدلل (هنتجتون) على قوله بأن: «دين الإسلام يضم مجتمعات شتى من أجناس متباينة يوحد بينهم الإسلام، وهم ينظرون إلى غيرهم على أنهم أصحاب حضارة مضادة، ومن ثم فهم لن يقبلوا الدعوة الأمريكية إلى الانضمام للحضارة التي تمثلها البلدان (الكاثوليكية البروتستانتية) التي تقودها الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين وهي حضارة مستقرة بزعم (هنتجتون) تميل بوصلتها نحو العالمية؛ لأنها غير مستعدة لصدام بسبب الثقافة الدينية، ساعد على ذلك أن الغرب لم ينتج ديناً، فالمسيحية من نتاج الحضارة الشرقية من فلسطين في قلب العالم الإسلامي، الأمر الذي من أجله يرى مفكرو الغرب ومؤرخوه ضرورة إنهاء الأيديولوجيات التي طبعت الحضارة الغربية في وقت ما بصنع التزام ديني، فمنذ القرن السابع عشر يعمل الفكر الغربي من أجل فصل بين الدين والدولة، والبحث عن عمل عقلي مشترك ينهي الصراعات الثقافية في العالم بإحلال ثقافة كبرى مشتركة لكل الشعوب، يكون أُسّها المثال الحضاري الغربي، والقانون الغربي.

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص٥٣.

يقول (هنتجتون) دون مواربة: «في القرن العشرين الحضارة تعني الحضارة الغربية، والقانون الدولي يعني القانون الغربي، والنظام الدولي هو النظام الغربي للدول المتحضرة. هذا النظام العالمي = الغربي، تطور حدث في السياسة الكونية منذ سنة ١٥٠٠م في الحركة الإنسانية وعصر النهضة، قام هذا التطور بتأثير تجانس ثقافي في اللغة والقانون والدين والممارسات الإدارية والزراعية» وفي نهاية القرن العشرين خرج الغرب كحضارة عالمية.

ويتجاهل (هنتجتون) الصدامات التي حدثت في المجتمع الغربي نفسه من حروب دينية كتلك التي حدثت بين الكاثوليك والبروتستانت بعد حركة انشقاق (مارتن لوثر) عن الكاثوليكية في القرن السادس عشر والحروب الأيديولوجية مثل التي أثارتها الفاشية والنازية والشيوعية وغيرها.

ولكن (هنتجتون) يعلن عن سمات الحضارة الغربية «إنها حضارة أو ثقافة (دافوس) ثقافة المنتدى الاقتصادي العالمي، ثقافة الذين يتحكمون بالفعل في كل المؤسسات الدولية، وفي حكومات العالم، وفي معظم مقدرات العالم الاقتصادية والعسكرية»[1] إنهم صفوة رجال البنوك العالمية وممثلي الحكومات التي تملك مقدرات العالم، ويحملون درجات علمية في العلوم الطبيعية والاجتماعية والإدارية والقانون، يتعاملون مع الكلمات والأرقام لحساب حكومات أو هيئات ذات اهتمامات دولية واسعة، ومع ذلك فهم لم يحققوا نجاحاً نهائياً، فهم جعلوا الشباب في العالم الإسلامي يأكلون أطعمة ماكدونالد ويشربون الكوكاكولا ويستمعون إلى موسيقى الروك والبوب والراب، ويرتدون الجينز، ولكن ليس معنى هذا أنهم تقبلوا الثقافة الغربية. فكل ذلك يضيع «بين نوبات ركوعه

---

(١) هنتجتون: صدام الحضارات ص ٩٥.

باتجاه مكة»[1] إنه بالرغم من توجه الغرب إلى الحضارة العالمية الفاعلة، فإن ذلك لم يحل دون شهود العالم لانبعاث صحوة إسلامية، مما أدى إلى «تقوية الاختلافات بين الأديان»[2] والمسلمون زاد عددهم بدرجة كبيرة، وعلى المدى الطويل سينتصر -محمد ﷺ[3]- ومسلمو العالم سيستمرون في الزيادة الكبيرة التي تصل إلى ٣٠٪ من سكان العالم عام ٢٠٠٠م، وهو ما يهدم افتراض نهاية التاريخ عند الديمقراطية الأمريكية.

وإن انهيار الشيوعية لن يوقف سعي المسلمين لإحياء الوعي الإسلامي. إن الانقسام البشري القائم على الدين والثقافة سيظل قائماً وسيفرخ صدامات حضارية، خاصة من جانب المسلمين.

إن الله تغلغل في قلوب المسلمين - هكذا قال (هنتجتون)- ولهذا السبب فإن الحضارة الإسلامية ستظل الأكثر تقبلاً للصدام مع الحضارات الأخرى، بعكس الحضارة الغربية التي تقوم على:

١- الفصل بين السلطة الكنسية والسلطة المدنية، وهذا الفصل يمثل قاعدة تطور الحرية في الحضارة الغربية.

٢- حكم القانون وترسيخه، ووضع الأساس القانوني لحماية حقوق الإنسان.

٣- التعددية الاجتماعية، ومنها تنشأ جماعات مستقلة لا تعتمد على سلطة الدم أو الزواج.

٤- الهيئات النيابية التي توفر وسيلة المشاركة السياسية الواسعة التي لا توجد في الحضارات الأخرى.

---

(١) المرجع السابق ص٩٦.

(٢) المرجع السابق ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق ص١٠٨.

٥- الفردانية، وحق الفرد في الحضارة الغربية، وتراث الحقوق والحريات الفردية في المجتمع المدني الغربي.

٦- التحديث دعامة التقدم.

وعلى غير الغربيين بزعم (صمويل هنتجتون) لكي يقوموا بالتحديث، أن تتخلى مجتمعاتهم عن لغاتها التاريخية، وتتبنى الإنجليزية كلغة قومية... وأن تترك القيم الدينية، والافتراضات الأخلاقية؛ لأنها معادية لقيم التحديث وممارسات التصنيع، وعندما يتقبل المسلمون بصفة خاصة المثال الغربي صراحة، سيكونون في وضع يمكنهم من استخدام التقنية، ومن ثم أن يتقدموا[1].

إن في هذا التصور مغالطات كبرى، فالإسلام لم ينغلق يوماً على نفسه وقد أخذ من كل الثقافات منذ القرن السابع حتى الآن، ولكنه يصيغ ما يأخذ ويخصبه بما يتواءم معه. والانفتاح على كل الثقافات أصل في التشريع الإسلامي وفي الأثر الشريف: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، «واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

إن (صمويل هنتجتون) لا يكف عن تحذيره للغرب من خطورة صحوة العالم الإسلامي، ومع أنه يؤكد أن الغرب لا يزال يمثل أكبر قوة في العالم، وأنه ما زال مؤهلاً لقيادة العالم والتحكم فيه بإمكاناته التي «تسيطر على أسواق العالم الرئيسية، وتمارس قيادة معنوية كبيرة داخل مجتمعات كثيرة، قادرة على التدخل العسكري الواسع، وتتحكم في الطرق البحرية وتقود البحث العلمي والتطوير التقني وتسيطر على صناعة الفضاء ووسائل الاتصال العالمية، وصناعة الأسلحة ذات التقنيات العالية فإن هناك قوة آخذة في النمو، في العالم الإسلامي.

---

(١) انظر: صدام الحضارات ص ١٣٧ - ١٣٩.

هذه إحدى صورتي الغرب، أما الصورة الأخرى فهي صورة حضارة تنهار، وهذا الانهيار الذي يتصوره (هنتجتون) يتمثل في انكماش الغرب كقوة إمبريالية توسعية، ويلخص حالة الانحسار هذه، في مقابلة المد الإسلامي في الفقرة التالية: «في قمة التوسع الغربي سنة ١٩٢٠م كان الغرب يحكم ٢٥،٥ مليون ميلٍ مربعٍ، أي نصف الكرة الأرضية تقريباً، وفي سنة ١٩٩٣م أصبحت الحكومات الغربية لا تحكم أحداً سوى الغربيين.. «ومن حيث عدد السكان فإن الغرب في سنة ١٩٩٣م يحتل المركز الرابع بعد الحضارات الصينية والإسلامية والهندية. الغربيون إذن يمثلون أقلية في سكان العالم، وهي تتناقص باضطراد[1].

أما المسلمون فيمثلون أكبر زيادة عددية، مما يجعلهم في الترتيب الأول من سكان العالم بعد فترة وجيزة، وهذا بدوره يحفزهم للصدام الحضاري. وعند ذلك فإن «عصر السيادة الغربية سوف يؤذن بالزوال»[2] مما يقوي عمليات التأصيل الكونية، وصحوة أهل الثقافات الأخرى في جميع المجالات: الثقافية والعسكرية الاقتصادية، وسوف يعزون ذلك التقدم إلى ثقافاتهم الخاصة، وسيعلنون أنهم حققوا نجاحهم بسبب نبذهم الغرب والتمرد عليه.

إن الصحوة الإسلامية على سبيل المثال ترفع شعار أسلمة القضايا الرئيسة في المجتمع الإسلامي، ومجتمع شرق آسيا بدأ هو الآخر يرفع شعار الكونفوشية. والآسيويون عموماً يتحدثون عن أسينة بلادهم.

ويلخص (هنتجتون) هذا التحول في هذه المجتمعات بالعبارة الآتية: «تتجلى عملية

---

(١) انظر: صدام الحضارات ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٠.

التأصيل الكونية هذه بشكل واضح في الإحياء الديني الذي يحدث في أجزاء كثيرة من العالم. خاصة ذلك الانبعاث في الدول الإسلامية والآسيوية الناجم عن نشاطها الثقافي ونموها السكاني»[1].

والذي يؤرق (هنتجتون) أن الصحوة الدينية في العالم الإسلامي لا تقتصر على الأصوليين، بل تتجلى في الحياة اليومية للناس، وخطط الحكومات في المجتمعات الإسلامية، فالدين يحدد هويتهم وإحساسهم بالحياة.

كما أن الصحوة الكونفوشية تتخذ شكل توكيد القيم الآسيوية، المعادل لتوكيد القيم الدينية عند المسلمين. ولقد برز ذلك بصورة قوية بعد انهيار الشيوعية، فقد نظر الناس إليها على أنها ليست سوى الإله العلماني الذي اعترف بفشله، ولأنهم غير مقتنعين بإله الغرب فقد توجهوا بعواطفهم نحو الإله الحق. فلا الشيوعية ولا الرأسمالية، استطاعت تحريك المجتمع الإسلامي إلى الأمام فعادوا إلى الدين (الإسلام)؛ لأنه المحرك إلى التقدم. وهم لا يمانعون من استخدام وسائل الاتصال الحديثة والتقنية بل هم حريصون على ذلك. خاصة الشباب.

إن صحوة العالم الإسلامي أقوى مظاهر معاداة التغريب، هي إعلان استقلال ثقافي ضد الغرب وعبر عنها (هنتجتون) فقال إنه: «إعلان كله كبرياء يقول: سنكون حديثين، ولكننا لن نكون أنتم»[2].

إنها «عودة إلى الأصول وإحياء الدين، والتوكيد الثقافي وتحدي الغرب جاءت من الإسلام في الربع الأخير من القرن العشرين»[3].

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧.

(٢) صدام الحضارات ص ١٦٨.

(٣) المرجع السابق ص١٦٩.

يرقب (هنتجتون) الصحوة الإسلامية، ذات الحركة الدائبة المتقدمة إلى الأمام ويرى التحدي الإسلامي لكل آت من الغرب. وهو لا يقصد العلم الغربي؛ لأن رفض الغرب بكل قيمه الثقافية والاجتماعية؛ لا يضاده قبول العلم. والذي يزيد الأمر تعقيداً في عقل (هنتجتون) أن رفض العالم الإسلامي لقيم الغرب يضاده تأكيد على الذات الإسلامية النابع من التعبئة الاجتماعية والنمو السكاني للمسلمين، مما يؤثر سلباً بزعمه في عدم استقرار السياسة العالمية في القرن الحادي والعشرين. وقد يكون التأكيد نفسه من جانب أكبر قوة آسيوية من الصين الكونفوشية، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي فقد اختارت الصين الميل نحو الرأسمالية والمشاركة في الاقتصاد العالمي، مع الالتزام بالثقافة الكونفوشية، وصيانة الثقافة الصينية من المفاهيم الغربية المتسوردة.

ولكن (هنتجتون) لا يرى خطورة على الغرب في توحد الصين بمفاهيم كونفشيوس وتنظيمها وقوتها الاقتصادية، كتلك الخطورة الكامنة في الإسلام وفي شعار: الإسلام هو الحل؛ لأن المسلمين كما يرى (هنتجتون): «يتوجهون نحو الإسلام كمصدر للهوية والاستقرار والشرعية والقوة والأمل»[1] والذي يؤرقه أن الدين يتحرك حركة دائبة تقدمية يزكي المشاعر الوطنية بين الشباب الذين يمثل الطلاب عنصرهم الرئيس ويقودهم المثقفون الذي يتبعون أسلوباً راقياً متطوراً في مخاطبة المرأة.

إن ضعف الحركات اليسارية وفقدانها مصداقيتها حفزت جيل الشباب إلى الإيمان بمبادئ الصحوة الإسلامية، كما أن جماعات الديمقراطية الليبرالية أثبتت فشلها لارتباطها المتجذر بثقافة الغرب. لكن الغريب في أمر (هنتجتون) أنه لم يفهم أن قوة الصحوة الإسلامية كامن في ارتباطها بالمسجد، وبأنها تعبير وطني بالدرجة الأولى يذود

---

(١) صدام الحضارات ص١٨٠.

عن الوطن بل يرى أن خطورة الصحوة فيما يدعمها من الزيادة السكانية في الدول الإسلامية، إنه يتوقع أن يزيد عدد المسلمين في العالم على ٣٠٪ من سكان العالم سنة ٢٠٢٥م ولأن الكثرة السكانية تحتاج إلى موارد أكثر، فإن النمو السكاني للمسلمين بزعمه «يكون عاملاً مساعداً في إشغال الصراعات على حدود العالم الإسلامي بين المسلمين والشعوب الأخرى»[1].

ويزعم (هنتجتون) أن إيقاف زحف الخطر الإسلامي لن يكون إلا بإعادة التشكيل الثقافي للسياسة الكونية. وإقامة أحلاف حضارية تصد الصدام الإسلامي المرتقب عند خطوط التقسيم الحضاري مثل حلف أرثوذكسي لمقاومة زحف الإسلام على البلقان وعلى روسيا الأرثوذكسية أن تساعد الصرب الأرثوذكس، وتساعد ألمانيا الكروات الكاثوليك. ضد مسلمي البوسنة ومسلمي ألبانيا.

وهذه مجرد أمثلة لصدام الإسلام عند الحدود الجغرافية، وإلا فهناك الصراع الهندوسي الإسلامي في الهند وباكستان وبنجلاديش وكشمير، والإسلامي اليهودي في فلسطين.

ولا يكتفي (هنتجتون) بإقامة هذه الأحلاف لضرب الإسلام، بل طالب الغرب بأن يعلق علاقاته مع الدول الإسلامية على مدى تمسكها بالإسلام أو ابتعادها عنه ويضرب الأمثلة بـ: إيران أيام (الشاه رضا بهلوي) والآن، وتركيا أيام (أتاتورك) والآن.

وهذا الأسلوب في التعامل يطبقه الغرب بالفعل، وقد علق عليه الرئيس التركي الراحل (أوزال) سنة ١٩٩٢م بقوله: سجل تركيا بالنسبة لحقوق الإنسان ملفق لتبرير عدم قبول طلب انضمامها إلى الاتحاد الأوربي، إن السبب الرئيس لعدم انضمامها هو

---

(١) صدام الحضارات ص ١٩٦.

أننا مسلمون وهم مسيحيون، ولكنهم لا يقولون ذلك؛ والمسؤلون الأوربيون بدورهم يتفقون على أن الاتحاد عبارة عن ناد مسيحي. وتركيا مسلمة جداً، فقيرة جداً، مكتظة جداً بالسكان، فظة جداً، مختلفة ثقافياً جداً، وهي جداً في كل شيء في مرآة الغرب[1].

ويرى (هنتجتون) أن تثبيت المد الإسلامي عند نقطة وقوفه الآن ممكنة؛ لأنه في عالمنا المعاصر لكل حضارة دولة مركز ما عدا الحضارة الإسلامية فليس لها دولة مركز تقودها. ويفصل (هنتجتون) الحضارات ودول مركزها على الوجه التالي:

(الكاثوليكية - البرتستانتية - والأرثوذكسية)، و(الإسلام)، و(الكونفوشية)، و(البوذية)، و(الهندوسية).

أهم دولة مركز: الولايات المتحدة وهي دولة المركز لأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، وفرنسا وألمانيا دولتا مركز في أوربا، وروسيا دولة مركز لأوربا الأرثوذكسية. والصين دولة مركز لكل بلاد الكونفوشية. والهند دولة مركز في القارة الهندية. واليابان دولة مركز للبلاد البوذية.

الإسلام يمثل الحضارة الوحيدة التي تفتقد لدولة المركز، ولولا وحدة الثقافة والدين لما كان للمسلمين الآن سلطة مجمعة تجمعهم. وقد حدث هذا التفكك في العالم الإسلامي بفعل معتمد من الغرب، فقد قضى على الإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الإسلامية المغولية بالهند، ومن ثم لم يعد للدول الإسلامية دولة مركز ترأس دول الحضارة الإسلامية، وتكون كلمتها مقبولة داخل العالم الإسلامي، ولها كلمة مسموعة خارجه. وإن غياب دولة مركز إسلامية عامل محفز للصراعات الداخلية، وعامل ضعف في السياسية الخارجية، وإن أكبر الدول الإسلامية عربية وغير عربية: إندونيسيا وإيران

---

(١) صدام الحضارات ص ٢٣٨.

وباكستان وتركيا ومصر والسعودية. وكل منها غير قادرة على أن تمثل دور دول المركز في الحضارة الإسلامية إما لأنها بعيدة عن المركز مثل إندونيسيا أو لأنها فقيرة وتابعة للغرب مثل باكستان وتركيا ومصر، أو أن عدد سكانها قليل مثل السعودية، أو أنها من المسلمين الشيعة الذين يمثلون ١٠٪ من مجموع مسلمي العالم مثل (إيران).

ومع تفاقم مشكلات العالم الإسلامي وتفككه فإنه في رأي (هنتجتون) يواصل تهديده للحضارة الغربية الكاثوليكية البرتستانتية بالهجرة المستمرة إلى الغرب. ويرى أن هذه الهجرة ستصيب مجتمع الغرب بالتصدع، وتجعله يضم مجتمعين منفصلين؛ لأن الإسلام يختلف عن الكاثوليكية والبرتستانتية.

والذي يؤرق (هنتجتون) من وجود المسلمين بالغرب، أن رغبة المسلمين غير واضحة في استيعاب حضارة الكاثوليك والبرتستانت. ولهذا يعتقد أن المسلمين يمثلون المشكلة العاجلة للغرب. وإن ذلك من شأنه إضعاف ميزان القوى المتغير بين الحضارات الأخرى، وحقوق الإنسان، والتنمية ونشر الثقافة الاجتماعية الغربية وغيرها من المثل العليا في الغرب.

ولهذا ينصح الغرب في سياسته مع العالم الإسلامي «أن يستخدم موارده الاقتصادية ببراعة بأسلوب الجزرة والعصا في التعامل مع المجتمعات الأخرى»[1].

لقد انتهى مصطلح الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والشيوعي، وفي بداية التسعينيات من القرن العشرين، أي عقب انهيار الاتحاد السوفييتي وتوديع الشيوعية يعود مصطلح الحرب الباردة للظهور، ولكن هذه المرة بين الغرب والمسلمين، ويرى غالبية من علماء الغرب في تخصصات مختلفة: «حرباً حضارية باردة تنمو مرة أخرى

---

(١) صدام الحضارات ص٢٣٥.

بين الإسلام والغرب»[1] ويرون أن هذه الحرب حتمية، كما يرون أن ثمة حروباً أخرى يكون الإسلام القاسم المشترك الأعظم فيها. إنها صراعات خطوط التقسيم المتفشية بين المسلمين والهندوس. وفي الأرخبيل الإندونيسي بين المسلمين والكاثوليك، وفي الفلبين وتايلاند وبورما. وفي إفريقيا تعايش قلق بين المسلمين وغير المسلمين. وفي أوربا تعايش قلق بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، في يوغسلافيا بين المسلمين البوسنيين والألبان والصرب والأرثوذكس وهو ما أطلق عليه (هنتجتون) صراعات خطوط التقسيم في قوله: «إن صراعات خطوط التقسيم متفشية بصفة خاصة بين المسلمين وغير المسلمين» وإن الإسلام هو المحرك لهذا الصدام.

ومع أن الصين تمثل القوة المناوئة للغرب بعد الإسلام، فإن الصدام المسلح بين الصين والغرب ليس مؤكداً. ولكن الإسلام بزعم (هنتجتون) «هو القوة المحركة للصدام، بل المصدر المستمر لحروب كثيرة». الصراع موجود منذ أربعة عشر قرناً في العلاقات بين الإسلام والمسيحية، وكان صراعاً عاصفاً دائماً لا يقارن به صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية (الغرب بقيادة الولايات المتحدة) والماركسية اللينينية (الاتحاد السوفييتي) فهذا الصراع الأخير لم يكن سوى قضية سطحية وزائلة إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية.

ويستشهد بكلام ينقله عن المستشرق (برنارد لويس): لمدة ألف سنة كانت أوربا تحت تهديد مستمر من الإسلام. الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل؛ لأن مفهوم المسلمين للإسلام أسلوباً للحياة يربط الدين بالسياسة ويحفزهم للصدام.

---

(١) صدام الحضارات ٣٣٥... ٣٤٢.

ويفترض (هنتجتون) إما أن يكون الإسلام مسيحية جديدة، وإما أن يكون عدواً لها. ولكنه يعود فيؤكد استحالة الوئام بين الديانتين؛ لأن هناك عوامل تزيد من درجة الصراع بين الإسلام والمسيحية، وكلها أسباب نابعة في رأيه من الإسلام لا من الغرب المسيحي وتتلخص فيما يلي بزعمه:

- أولاً: النمو السكاني للمسلمين خاصة من الشباب الساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية، ويشكلون ضغطاً على المجتمعات المجاورة، ويهاجرون إلى الغرب.
- ثانياً: أعطت الصحوة الإسلامية ثقة متجددة للمسلمين في قدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة. وفي تفوق حضارتهم على الحضارات الأخرى.
- ثالثاً: سقوط الشيوعية قضى على عدو مشترك للمسلمين وللغرب، وترك كلا منهما لكي يصبح الخطر المتصور على الآخر[1].
- رابعاً: استياء المسلمين من جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكري والاقتصادي، والتدخل في الصراعات في العالم الإسلامي ويؤكد (هنتجتون) إنه في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين انهار التسامح بين الإسلام والغرب، وإن الصراع يتجدد باستمرار طالما تطرح القضايا الأساسية للقوة والثقافة وتطور القيم العلمانية مقابل القيم الدينية. والاستياء من السيطرة الغربية على بنية مجتمعات العالم الإسلامي، وشعور المسلمين بالمرارة عند مقارنة واقعهم بمنجزات حضارة الغرب؛ ولأن الإسلام لن يتخلى عن ثقافته الدينية والأخلاقية ولن يقبل العلمانية، فإن

---

(١) صدام الحضارات ص ٣٤٢.

المواجهة القادمة لتهديد الحضارة الغربية تأتي تحديداً بزعم (صمويل هنتجتون) من الإسلام؛ لأن العداء في تصوره عداء الإسلام لا عداء إسلاميين «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام ذاته فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته. وفي المقابل حضارة الغرب، حضارة مختلفة شعوبها مقتنعة بعالميتها، ويرون أن قوتهم المتفوقة تفرض عليهم التزاماً بنشر هذه الثقافة في العالم. هذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصدام بين الإسلام والغرب»[1].

وهنا يلتقي (هنتجتون) مع (فرانسيس فوكوياما) فقد قال (فوكوياما): (إن التاريخ ينتهي عند تعميم الديمقراطية) - المثال الأمريكي - ويؤيده (هنتجتون) فيقول: (إن التاريخ في العادة ينتهي عند ازدهار حضارة ما، هكذا كان شعور البريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر في أوج الازدهار البريطاني حيث كانوا يرون أن التاريخ بالنسبة لهم قد انتهى، وكان لديهم من الأسباب ما يكفي ليجعلهم يهنؤون بعضهم على الحال الدائمة من السعادة العظيمة التي خلعتها عليهم نهاية التاريخ).[2]

إن حضارة الغرب (النموذج الأمريكي) تأثيرها طاغ على كل الحضارات؛ لأنها حققت عالمية التحديث والثروة والحداثة، إنها نهاية التاريخ الحقيقي الذي لا يعقبه انهيار، كما رأى (فرانسيس فوكوياما) وتمنى (صمويل هنتجتون).

ولهذا فإن هذا الأخير يحذر أصحاب هذه الحضارة من الإسلام، ففي الإسلام فقط - بزعمه - مكمن الخطورة على حضارة الغرب وعلى نهاية التاريخ. ومن ثم يهيب

---

(١) صدام الحضارات ص ٣٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٨٧.

بالغرب أن يتنبه ويعمل من أجل إعادة نفوذه المتدهور في الشؤون العالمية ويعيد تأكيد وضعه قائداً حضارياً تتبعه الحضارات الأخرى وتقلده، خاصة أن الحضارة الغربية لا تزال قادرة على ذلك، ولديها فائض قوي في مجالات التقنية والمال والاقتصاد والسياسة والتفوق في علوم الاجتماع والتربية وقادرة على أن تستخدم الفائض الحضاري في صنع أساليب حضارية جديدة، بشرط أن تحتفظ بأسرار ما تملك لنفسها ولا تفرط فيه لغيرها.

ومع أن (هنتجتون) يرى أن حضارة الغرب قادرة على الانتصار على أي تحد خارجي، فإنه يحذر الغرب من مشكلات الانهيار الأخلاقي والتفكك الاجتماعي الذي برز على السطح في تعاظم الجريمة وأعمال العنف وتعاطي المخدرات والتفكك الأسري، والأمهات الصغيرات غير المتزوجات، وضعف أخلاقيات العمل، وموت روح الجماعة بالانغماس في الفردية، والانتحار الثقافي بعدم الالتزام بالنشاط الفكري، وتدني مستويات التحصيل الدراسي.

إن الغرب باختصار يعاني من ضعف الصحة النفسية، الذي يقابله التفوق الأخلاقي عند المسلمين، يضاف إلى ما سبق ضعف المسيحية المكون الرئيس للحضارة الغربية؛ لأن ضعفها يضعف من شأن حضارتها، فنسبة الذين يعلنون إيمانهم بالدين المسيحي قليلة[1]. ولذلك فإن الغرب يفتقر إلى قلب ثقافي (ديني).

إن (هنتجتون) يطالب الولايات المتحدة وأوربا بتجديد حياة أخلاقية مسيحية عندها تولد حضارة جديدة ذات ثراء اقتصادي ونفوذ سياسي وتكامل ذي مغزى في عيون الحضارات الأخرى التي يجب عليها أن تعتنق قيم الغرب وثقافته التي تجسد أرقى

---

(١) صدام الحضارات ص ٤٩٣.

فكر واستنارة وعقلانية وحداثة وتحضراً[1].

أليس هذا المنطق مثيراً للدهشة: أن تطالب الولايات المتحدة وأوربا بالعودة إلى المسيحية، ولا تكف عن الطعن في دين الإسلام. «الذي يراه خطراً على الغرب كما يراه خطراً على إسرائيل الصورة المصغرة للولايات المتحدة»[2].

ومن ثم فإن (هنتجتون) يدعو إلى أن تساند الولايات المتحدة مع أوربا في الصدام الكوني القادم؛ لأن حضارات العالم بكل منجزاتها في الدين والأدب والفن والفلسفة والعلم والتكنولوجيا والأخلاق سوف تتساند؛ ولأن الضمان الأكيد ضد صدام الحضارات ينتهي بحرب عالمية، هو نظام عالمي يقوم على تساند الحضارات»[3] في ظل الحضارة الأمريكية.

إن (هنتجتون) مثل كل مفكري الغرب يريد أن ينهي خصوصية الأديان والثقافات من أجل إيجاء ثقافة واحدة من صنع الغرب وحده بقيادة الولايات المتحدة، إنه يريد أن يغتسل الغرب ويتطهر من أدناس ماضيه العدواني منذ أيام الرومان حتى عصر الاستعمار والفاشية والنازية والشيوعية والفوضوية، يريد أن يطهره من خبائث ماضيه ولكن لا يدري أنه يغتسل من خبائث ليعد نفسه لخبائث أخرى بإنشاء ديمقراطية ذات ضعف أخلاقي عابرة للقوميات والثقافات والأديان من أجل خدمة الرأسمالية متعدية الجنسيات بشرط واحد، أن يظل التفوق للحضارة التي تقودها الولايات المتحدة في السوق الكوني المنشود.

---

(١) المرجع السابق ص ٥٠١.

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٩.

(٣) المرجع السابق ص ٥٢١.

أما الموقف المضاد للإسلام بصفة واحدة، باعتباره حركة مناقضة لما يدعو إليه الغرب من أهمية الاهتمام بالمجتمع المدني في سياق ممتزج من الميول التقليدية والميول الإباحية، فإن الغرب لا ينظر إليها على أنها إشكالية آنية، فمنذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وحتى الآن يعمد العالم الغربي إلى احتواء العالم الإسلامي، وجعله ركناً في مجتمع كلي ذي نزعة غربية، ولهذا زاد العمل من أجل احتواء العالم الإسلامي بعد انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدي بين الرأسمالية والشيوعية، وهذا جعل العالم الإسلامي يبالغ في تخوفه من نوايا الغرب بقيادة الولايات المتحدة، ويزيد من قدر التعقد السياسي من نوايا الغرب بقيادة الولايات المتحدة، ويزيد من قدر التعقد السياسي في العالم الإسلامي، مما أظهره في نظر الغرب وعقله بالحركة المضادة للعولمة الرافضة لخطاب ما بعد الحداثة. وفعل (رولاند روبرستون) وهو مفكر اجتماعي غربي مشارك في وضع الاستراتيجية الأمريكية مثل (فوكوياما) و(هنتجتون) يصور الصورة التي يتصورها الغرب لموقف الإسلام من العولمة باعتبارها عملية كوننة الخصوصية أو عولمتها فيقول: «ويمكن في هذا الوقت النظر إلى مقاومة العولمة تلك التي يعتبرها البعض مضمنة في الجانب الأكثر راديكالية من الحركة الإسلامية العامة، بوصفها معارضة ليس لاعتبار العالم واحداً متجانساً فحسب.

إن للغرب طرقاً في التعامل مع الإسلام وثقافته وكلها طرق مضللة، وتتمحور هذه الطرق في:

١- تقييمات ثقافية في تحليل أفكار الحركات التي تجعل مرجعيتها أصول الإسلام دون الاعتبار بالمستجدات.

٢- تفسير غربي مبني على قواعد علم الاستشراق في تحليل تراث الإسلام. وهو تفسير يعجز عن سبر أعماق التراث الإسلامي.

٣- النظر إلى ثقافة الإسلام على أنها ثقافة الآخر الضد.

ويأتي الخطأ في كل هذه الحالات نتيجة وضع. وإنما أيضاً بشكل وطيد لمفهوم العالم كسلسلة من طرق الحياة أو كياناتها الثقافية[1]. فروض من خارج نطاق الإسلام من خلال تجاوز الوعي بحقيقة الإسلام ذاته، واعتبار المجتمع المدني الغربي مدينة فاضلة يجب أن تدخلها كل الشعوب في إطار مشروع ثقافي غربي دونما اعتبار لأية ثقافة أخرى.

المنظرون الغربيون في خوف دائم من بعث إسلامي، حتى ولو كان الإسلام لا يمثل أكثر من كونه رقعة جغرافية تطمع فيها القوى الخارجية. ويبرر (أرنولد توينبي) المؤرخ الإنجليزي الشهير هذا الخوف ومبعثه بانتصار الإسلام على المسيحية في جميع الصدامات التي قامت بينهما. ففي الإسلام قوة جاذبة، جذبت إليه شعوباً بأكملها بغير صدام عسكري في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر في وقت كانت بلاد المسلمين ضعيفة عسكرياً واقتصادياً ولكن جاذبية الإسلام كانت تنتصر على المسيحية[2].

فكرة الصدام لم يبتكرها (هنتجتون) ولم تنشأ من عدم، إنها موجودة في عقل الغرب ووجدانه ويحركها منظرو الغرب من حين لآخر. ولكن ما الذي يخيف الغرب في عصر العولمة من الإسلام؟

الحضارة الغربية تحركها المصلحة أولاً وأخيراً، وليس للدين سحر فيها كمؤثر فعال وفي ذات الوقت، فإن الإسلام أسس على ثوابت عقدية، ومن شرط إسلام المسلم أن يتمسك بها، ثم له أن يتحرك خارج هذه الثوابت فيشبع مقاصده الدنيوية بحسب قاعدة

---

(١) رولاند روبرتسون: العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة. ترجمة: أحمد محمود ونورا أمين، مراجعة د.محمد حافظ دياب، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة رقم ٧٨ ص ٢٢١.

(٢) انظر: أرنولد توينبي: تاريخ البشرية ٢/ ٨٣، ١٥٦، ١٨٣. ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٨م.

المصلحة المرسلة، وهي وإن كانت دنيوية فإنها غير متناقضة مع الضوابط الشرعية. وهذا ما يؤرق منظري الثقافة الغربية ذات الطابع العلماني البحت.

هذه القوة الكامنة في الإسلام التي تحفزه لحراسة ثقافته وحضارته وصيانتها، تؤرق منظري الغرب ومنهم (هنتجتون) بالإضافة إلى جاذبية الإسلام التي نبه إليها (أرنولد توينبي) بقدر أكبر من خوفهم من الصين التي تمثل الآن أكبر منافس للولايات المتحدة أكبر قوة في الغرب - في مجال الاقتصاد والنفوذ السياسي- على جزء كبير من العالم. وفي مجال تطوير الأسلحة النووية والكيماوية وغيرها.

ولهذا يقدم (هنتجتون) بصفته - أحد المشاركين في تخطيط معالم السياسة الأمريكية الخارجية ومتغيرات البنية الأمنية والمصالح القومية الأمريكية - توصيات إلى إدارة الولايات المتحدة والدول الأوربية، من أجل الحفاظ على الحضارة الغربية تتلخص في الآتي»[1]:

١- تأسيس نماذج أكثر فاعلية بين الولايات المتحدة وأوربا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وتنسيق سياساتهم حتى لا تستغل دول من حضارات أخرى الخلافات بينهم.

٢- ضم الدول الغربية في وسط أوربا مثل دول البلطيق وسلوفينيا وكرواتيا للاتحاد الأوربي ولحلف شمال الأطلسي.

٣- تشجيع تقريب دول أمريكا اللاتينية والدخول في تحالف بينها وبين الغرب.

٤- تحجيم تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدى العالم الإسلامي والصين.

---

(١) د. الطيب زين الدين: بحث ص١٠ ضمن كتاب، العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي، مرجع سابق.

٥- وقف ابتعاد اليابان عن الغرب وتقاربها مع الصين.

٦- قبول روسيا باعتبارها مركزاً للديانة الأرثوذكسية ودولة إقليمية رئيسة في المنطقة لها مصالح في تأمين حدودها الجنوبية مع الإسلام.

٧- الحفاظ على التقدم التقني والتفوق العسكري الغربي على الحضارات الأخرى.

٨- استغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الإسلامية والكونفوشية.

٩- مساندة الجماعات المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى.

وهذه التوصيات لا صلة لها بالصدام الحضاري، أو الثقافات المناهضة لثقافة الغرب، بل هي توصيات لصيقة بالأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية الغربية.

لقد لاقت أفكار صدام الحضارات معارضة؛ لأنها نتجت عن ردود أفعال حيال مواقف نمطية لصورة المسلم في وسائل الإعلام الغربي، وبسبب كتابات استشراقية من أمثال (برنارد لويس). ومواقف إسلامية رافضة للثقافة الغربية، جعلت منظري السياسة الغربية ينظرون إلى الإسلام على أنه الخطر القادم لتهديد حضارة الغرب ومصادمتها. ومواقف الغرب من المسلمين في كل مناطق خطوط التقسيم تؤكد وقوف الغرب بقيادة الولايات المتحدة ضد مصالح المسلمين.

شبحا (هنتجتون) و (فوكوياما) يعودان في ديسمبر ٢٠٠١

في كتاب (صدام الحضارات) رأى (هنتجتون) أن حدود عالم الإسلام دموية، سواء كانت هذه الدموية بدمائها المهراقة بين مسلمين ومسلمين، أم بين مسلمين وغير مسلمين، فالإسلام بزعم (هنتجتون) عدواني، وأن عدوانيته تنبعث من عقيدته.

بدا الأمر وكأن (صمويل هنتجتون) يوم ألف كتابه (صدام الحضارات) يحذر الغرب، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية من عدوانية الإسلام ودمويته، كان ذلك في بداية التسعينيات بعد إعلان نهاية الاتحاد السوفييتي، وبعد نحو من عقد يعود (هنتجتون) نفسه ليحذر العالم الغربي مرة ثانية، فيكتب مقالاً في مجلة النيوزويك العدد السنوي (ديسمبر ٢٠٠١ - فبراير ٢٠٠٢م) بعنوان: (عصر حروب المسلمين) وفي هذا المقال كرر زعمه بأن السياسة الكونية المعاصرة تتمثل في (عصر حروب المسلمين) سواء مع بعضهم البعض أو مع بعضهم والآخرين؛ وأخذ يعدد حروب المسلمين في العشرين سنة الأخيرة على الوجه التالي:

١- في سنة ١٩٨١م غزت العراق إيران، وكانت حرباً طاحنة قتل فيها نصف مليون نسمة، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الجرحى والأسرى.

٢- وفي آخر العقد نفسه سنة ١٩٨٩م تفجرت مقاومة إسلامية عنيفة، أخذت طابع الجهاد الإسلامي في أفغانستان، انتهت بإرغام القوات السوفيتية على الانسحاب وتحرير أرض أفغانستان.

٣- وفي سنة ١٩٩٠م اجتاحت العراق الكويت، وتدخلت الولايات المتحدة لإنقاذ مصالحها في الكويت، وألحقت الهزيمة الساحقة بالعراق، ثم أخذت في العمل المتواصل من أجل تجريدها من السلاح.

٤- وفي التسعينيات اندلعت الحروب بين المسلمين، وغير المسلمين في: البوسنة، وكوسوفا، ومقدونيا، وأذربيجان، وطاجيكستان، وكشمير، والهند، والفلبين، وإندونيسيا (تيمور الشرقية) وفلسطين، والسودان، ونيجيريا، وموريتانيا.

لكن (هنتجتون) لم يذكر أن كل هذه الحروب كانت حروباً عرقية وعنصرية فرضت على المسلمين، وكانت تساعد على إشعالها قوى جبارة تفوق قوة المسلمين. ولكنه يقول: «ولقد كان العنصر الأساسي من المشاركين في هذه الحرب والصراعات يتمثل في المقاتلين المجاهدين ممن اشتركوا في الحرب الأفغانية، ومن المنظمات الإسلامية من دول إسلامية عديدة عبر العالم، وفي منتصف التسعينيات كان نصف عدد الصراعات العرقية في العالم صراعات بين المسلمين ممن يحاربون بعضهم البعض، أو يحاربون غير المسلمين»[1].

وبمنطق (صمويل هنتجتون): ما دامت أفغانستان في حربها ضد السوفييت قد فرّخت هذا الكم الهائل من المجاهدين المحاربين باسم الإسلام في كل مكان، فإنها تستحق العقاب الرادع، ولو أدى ذلك إلى إفنائها.

(هنتجتون) وأمثاله من منظري السياسة الأمريكية، يمثلون جزءاً من قاعدة الحكم في الولايات المتحدة تكتمل برجال: الإدارة الحاكمة والهيئات التشريعية، والاستخبارات، وصناع سلاح الدمار الشامل (الاستثنائي) ورجال الأصولية الاقتصادية المعولمة، هؤلاء هم الذين يمثلون القاعدة في الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية، وهم الذين يحركون العقل الأمريكي.

---

(١) صمويل هنتنجتون - مقال (عصر حروب المسلمين) نشر في جريدة الأهرام، ص١٢ في ٢٢/١٢/٢٠٠١م.

بعد حرب العراق وإيران، وحرب العراق والكويت، وأفغانستان والاتحاد السوفيتي وبعد انهيار هذا الأخير وتفككه، ثم ركونه إلى الظل، وتواريه وضعفه من أن يكون القوة العظمى الثانية المناوئة للولايات المتحدة، وبعد انشغال أوربا ببناء كيانها السياسي والاقتصادي الذي دمرته الحرب العالمية الثانية، حدث فراغ استراتيجي عالمي، نشطت فيه الولايات المتحدة الغنية العفية منفردة، ومن ثم أخذت تبحث عن محرك عالمي يزيد من نشاطها وقوتها، واختارت العالم الإسلامي لملء الفراغ الذي كان يملؤه الاتحاد السوفيتي، ورأت فيه عالماً يجب تنصيبه خصماً جديداً يتلاءم مع المرحلة الراهنة للحضارة الأمريكية، وكان لديها الأسباب والمبررات:

- أولاً: لأن العالم الإسلامي لا يزال يملك ثروة نفطية هائلة، تريد الولايات المتحدة أن تستفرغها، قبل التحول إلى نفط بحر قزوين الذي تعد لاستغلاله من الآن، قبل الاستيلاء عليه، بعد تفريغ الآبار العربية والإسلامية في منطقة الخليج.
- ثانياً: لأن عالم الإسلام خصم ثري بتراثه الثقافي، وأنه يلف العالم القديم كله بحزام حضاري، ثم بدأ يغزو العالم الجديد بهذا الموروث الحضاري بعد أن صار في كل العالم مسلمون مستوطنون يحملون تراثاً ثقافياً يؤكد كرم وجودهم الحضاري.
- ثالثاً: هناك إحساس نفسي بأهمية قهر هذا العالم والتفوق عليه حضارياً وثقافياً وأخلاقياً؛ لأنه حقق نصراً ثقافياً وعلمياً على الغرب، وتفوق عليه لعدة قرون خلت.

أضف إلى ذلك أن الولايات المتحدة التي يحركها الفكر البرجماتي الذرائعي وجدت نفسها تكسب كل جولاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية منذ منتصف القرن العشرين،

سواء كان ذلك في معاركها مع الآخرين، أو في معارك الآخرين مع بعضهم البعض، كما حدث في الحرب العالمية الثانية، وفي حرب العراق/ إيران فقد باعت السلاح لكلا الفريقين بنفسها، أو عن طريق وسطاء (إسرائيل) وكسبت بلايين الدولارات، وكسبت فوق ذلك إضعاف دولتين تنظر إليهما باعتبارهما عدوين لدودين لها، وتعتبرهما محور الشر، وفي حرب الاتحاد السوفيتي/ أفغانستان كسبت هزيمة الاتحاد السوفيتي أكبر خصومها العالميين، وبالتالي كسبت نفوذاً جديداً بالعالم بدون ثمن، وبتدخلها في حرب العراق/ الكويت صنعت بيديها وعلى عينيها النظام العالمي الجديد، أحادي الجانب، وبعد كل هذه المكاسب أخذ كبار المفكرين الأمريكيين من المشاركين في صنع القرار يعرّفون الولايات المتحدة بأنها الدولة العظمى الوحيدة في العالم الجديرة بأن توصف بأنها قوة عظمى منفردة.

في خضم هذه المشاعر الأمريكية، لم تعد أية ثقافة أو حضارة أو كيان سياسي مهيأ للصدام مع حضارة الغرب، إلا الإسلام باعتباره كما اعتقد المنظرون الأمريكيون وفي مقدمتهم (صمويل هنتجتون) و(فرانسيس فوكوياما) الخطر الأكبر أمام الديمقراطية الغربية، تأويل ذلك -بحسب زعمهم- أن الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية الحرة -على وجه التحديد- تنشد العالمية، إن لم تكن العالمية ذاتها من وجهة نظر (فرانسيس فوكوياما) - الصوت الأمريكي الذي يرى أن ديمقراطية بلاده يجب أن تسود العالم - أن على كل النظم السياسية والاقتصادية الأخرى أن تتوقف، لكي تأخذ الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية الحرة المكان الأوحد في العالم كله، كما أن الصوت الأمريكي نفسه يرى وجوب أن تعم هذه الديمقراطية العالم ولو بالقوة. فإذا عرفنا كما صرح (فوكوياما) أن الإسلام عالمي التوجه، وأنه جاء للناس جميعاً، فبحسب مزاعم كل من (فوكوياما) و(هنتجتون) فإن الصدام بين الإسلام، والديمقراطية الأمريكية حتمي. بل إن (فوكوياما) على وجه

الخصوص يرى أن الإسلام يرفض (الليبرالية) الحرية التي تقدسها الحضارة الغربية، خاصة فيما يتعلق بحرية النساء المطلقة، والحريات الجنسية التي تتحفظ حيالها الثقافية الإسلامية، وهو الأمر الخطير الذي تجب مواجهته[1].

هنا يطرح السؤال التالي:

هل أمثال (فوكوياما) و(هنتجتون) لا يفهمون الإسلام؟

أم أن سطوة المصالح الأمريكية والحرص عليها تقف دون فهم صحيح للإسلام؟

وسواء كان هذا أو ذاك فإن المسلمين - بوعي من تعاليم دينهم - لا يتدخلون في شؤون الآخرين، ما داموا لم ينبذوا إليهم بما يسيء إلى عقيدتهم أو إليهم.

ولهذا يتعامل المسلمون مع غيرهم بالتي هي أحسن، فقد أمرهم القرآن بأن يقولوا للناس حسناً، وأن يجادلوهم ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولكن (فوكوياما) في كتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر) يرى ضرورة وقوف الغرب في مواجهة الإسلام بحزم، خوفاً من انتشاره، لما له من جاذبية عظمى؛ لأنه نظام متماسك، ولما تمثل شريعته ومبادئه من عدل سياسي واجتماعي، يمكن أن تكون

---

(١) توجد شبكات عمل تسوية تنطلق من الولايات المتحدة الأمريكية لتصبح متعدية القومية تطالب بتمكين المرأة من: إشراك الرجل في المسؤولية عن السلوك الجنسي، والعناية بالرضع، وإلغاء التشريعات التمييزية بزعمهن في الميراث والطلاق، وتفسير آيات القرآن الكريم المتعلقة بالنساء بواسطة الجمعيات النسوية.

اقرأ التفاصيل في بحث للدكتورة (فالنتين مقدم) أستاذة علم الاجتماع بالولايات المتحدة الأمريكية من أصل إيراني: شبكات العمل النسوية متعدية الجنسية - مجلة الثقافة العالمية، العدد (١٠٥)، الكويت، مارس ٢٠٠١/، ص١٣٢-١٥٥.

له خطورة على انتشار القيم الديمقراطية، ورأسمالية السوق، وكل قيم الحضارة الغربية.

إن مزاعم (فوكوياما) غير صحيحة؛ لأن الإسلام لا يناهض الحرية -ولأن الناس- كما قال عمر رضي الله عنه من موضع الحكم: (قد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

ولا يأخذ التشريع الإسلامي موقفاً مناهضاً لحرية السوق ما دامت منضبطة بضوابط شرعية، محققة للعدالة الاجتماعية بين الناس، وضامنة لحقوق الفقراء فيها، التي هي حقوق الله في الوقت نفسه في تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي؛ لأن لله حقاً في كسب الأغنياء يرد على فقرائهم. وكان كبار الصحابة رضي الله عنهم من التجار، فقد كان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ تاجراً، لم يترك التجارة إلا عندما ولي أمر المسلمين، وكان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من أكبر تجار قريش. وقد دعما الإسلام والمسلمين بأموالهما.

إن هناك مواطن لقاء بين الحضارات والثقافات يمكن أن تحقق السعادة للبشرية، بشرط أن يحترم كل أهل حضارة الآخرين في مواطن الاختلاف. ما دامت لا تهددهم بالخطر.

الحضارة الإسلامية تقوم على احترام الآخر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الآية تؤكد على وحدة الأصل الإنساني، وأن لا فضل لعرق على عرق أو لون، أو جنس على جنس آخر. كما تؤكد على أن التعارض شيء مهم، وهو احترام ما عند الآخر، بل تدعو إلى معرفته ومعرفة ثقافته، والأخذ بما ينفع منها، بذلك تنتفي عوامل الصدام الإنساني بين الناس جميعاً.

إن الاختلاف سنة من سنن الخلق، فكما أن التعارف مهم لمعرفة ما عند الآخرين من خير ونفع، وتبادل المصالح والمقاصد، فإن الاختلاف كذلك من سنن الخلق، لأن ذلك يثري الفكر، ويذكي الإبداع ويبرز الجمال الإنساني، ومن ثم فإن الإسلام لا يفرض عقيدته أو شريعته أو ثقافته فرضاً على غير المسلمين.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨]، وترك للناس حرية العقيدة: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

من كل ما سبق فإن الإسلام لا يرى حتمية الصراع أو الصدام بين الحضارات، إنما يقبل التدافع الذي يؤدي إلى التنافس المثمر بين الأمم لمصلحة الناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

بهذه الأصول الإسلامية تعايشت الحضارة الإسلامية مع كل الحضارات، ولم تسع إلى القضاء على أية حضارة، خاصة عندما كانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم وأعظمها ثقافة ومدنية، بل إن المسلمين وهم في أعلى حالات قوتهم أخذوا من الحضارات الأخرى وأخصبوها وزادوا عليها، وبثوها في العالم.

لكن (صمويل هنتجتون) بعد كتاب (صدام الحضارات) يفاجئنا بمقال: (عصر حروب المسلمين) وهذا المقال الأخير بمثابة ملخص لكتاب (صدام الحضارات) كأنه في مقاله هذا يريد أن يقول للإدارة الأمريكية ولكل حلفائها في الغرب: ألم أقل لكم من هم المسلمون قبل حوادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م؟! مع أن الجناة الإرهابيين لا يزالون مجهولين، وقد يكونون من غير المسلمين، فالولايات المتحدة لم تصل إلى معرفة من هم الجناة بعد، ولو عرفت ما سكتت، خاصة إذا كانوا من المسلمين.

(هنتجتون) يكرر مختصر أفكاره عن ميل المسلمين للحرب في مقال (عصر حروب المسلمين) وهو نفسه مطول أفكاره التي فصلها في كتاب (صدام الحضارات) وفيها يحدد جذور حب المسلمين للحرب في:

١- «في أسباب أكثر عمومية كامنة في العقيدة الإسلامية ذاتها، وفي القناعات الإيمانية في الإسلام، فإن هذه العقيدة وتلك القناعات بزعمه مثلها في ذلك مثل ماضي المسيحية (عصر الحروب الدينية، ومحاكم التفتيش) حيث يدأب معتنقو هذا الدين على أن يستخدموا هذه العقائد، وهذه القناعات الإيمانية لتبرير حالة السلام، أو حالة الحرب كما يشاؤون»[1].

٢- أي أنهم بزعمه قادرون على تأويل نصوصهم الدينية تأويلاً ذرائعياً تبريرياً. بحسب الحالات التي يريدونها في حالي تبرير السلام أو تبرير الحرب.

٣- إن الذي يوقع المسلمين في أخطار الحروب بزعمه عجز المسلمين عن اللحاق بالغرب في مجالات التحديث والعولمة. ولهذا كان انبعاث الحركات الإسلامية بحسب رأيه، حالة من حالات رد الفعل، لمواجهة احتياجات المسلمين الذين تخلفوا في التعليم والتصنيع والزراعة، والذين تزايد عددهم بجانب تخلفهم بشكل انفجار سكاني، مما جعلهم يعانون من البطالة التي تدعم بدورها الاندفاع إلى الإرهاب.

٤- الانفجار السكاني في العالم الإسلامي هو القنبلة الديموجرافية الموقوتة فقد أدت «زيادة السكان في المجتمعات الإسلامية التي أنتجت زيادة ملحوظة في عدد الشباب في عمر من ١٦ سنة إلى ٣٠ سنة، وإن الذكور في مثل هذه الأعمار هم الذين

---

(١) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام في ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

ينخرطون بشكل رئيسي في أعمال العنف، في كل المجتمعات التي يوجدون فيها بأعداد وفيرة»[1].

٥- حقد العالم الإسلامي تجاه الغرب - بزعمه - فإنه عبر العالم الإسلامي كله -خاصة بين العرب المسلمين - يوجد إحساس قوى مليء بالحزن والاستيلاء، والحسد والعدوانية تجاه الغرب وثروته، وقوته وثقافته وتمدنه، وتقدمه.

٦- يضيف (هنتجتون) للأسباب السابقة، ما أطلق عليه:

الانقسامات الدينية والعرقية والسياسية والثقافية في العالم الإسلامي - ويضرب مثالاً بالخلاف بين مذهبي السنة والشيعة، خاصة في المملكة العربية السعودية وإيران، ويزعم أن الدولتين تتنافسان « فيما بينهما لدعم نوع الإسلام الذي يريده كل منهما»[2].

ألا يعرف (هنتجتون) أن الإسلام واحد، وإنما الاختلاف في فهم أمور خلافية في الفروع، ثم إن حرباً لم تقم بين المملكة العربية السعودية - وهي سنية - وبين إيران الشيعية، وإنما نشبت حرب ضروس دبرتها المخابرات الأمريكية بين دولتين من العالم الإسلامي أغلب سكانهما من الشيعة بأسلحة أمريكية هما: إيران والعراق.

٧- ويحاول (صمويل هنتجتون) في مقاله - كما فعل في كتابه - أن يتظاهر بالحياد فيقول:

إن عاملاً إمبريالياً يضاف إلى هذه العوامل أدى إلى انبعاث حالة العنف الإسلامي، فالمسلمون لم ينسوا الهيمنة الإمبريالية واحتلال أراضيهم بقوات احتلال غربية لمدة قرن كامل ويزيد، واستمرار القوى الإمبريالية خاصة إنجلترا والولايات المتحدة في اتخاذ سياسات عدوانية للعالم الإسلامي، مثلما حدث في إيران والعراق، مع استمرار

---

(١) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام في ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

السياسات الحميمية، والعلاقات الودية مع إسرائيل[1].

ومثل هذه العبارات - في كتابات (هنتجتون) تأتي متخفية على استحياء ذراً للرماد في العيون، حتى يوصف بالحياد، وما هو بالمحايد؛ لأن كتاب (صدام الحضارات) في طبعته العربية يزيد على الخمسمائة صفحة من القطع الكبير، وتتوه في طياته مثل هذه العبارات، التي لو جمعت ما سودت صفحة واحدة.

ومع ذلك فإن (هنتجتون) وهو يتظاهر بالحياد، لم يستطع تبرير التحيز الأمريكي لإسرائيل، وهو انحياز ضار بالعرب والمسلم ين، كما لم يشر إلى العدوان الإسرائيلي اليومي على الفلسطينيين العزَّل بمباركة الولايات المتحدة.

وعندما يركز (هنتجتون) هجومه على دولتين إسلاميتين لهما وزن كبير في العالم الإسلامي - السعودية وإيران - وكيف أمدَّا مسلمين بالمال في مواقع أوربية مثل (البوسنة)، لم يذكر أن المسلمين في هذه الدولة الأوربية كانوا ضحايا للتمييز العنصري، والتطهير العرقي على يد الصرب الذين كانوا يتلقون المساعدات العسكرية والمالية من روسيا وأوربا الشرقية، على عين الولايات المتحدة وسمعها وبصرها، ويشهد المفكر الأيرلندي: (فريد هاليداي) في كتابه (الإسلام وخرافة المواجهة) سنة ١٩٩٧م على ألوان التمييز العنصري ضد المسلمين في كل قارات العالم.

إن الأسباب التي ذكرها هنتجتون في كتابه (صدام الحضارات) ومقاله (عصر حروب المسلمين) هي من وجهة نظره أسباب انتشار العنف الذي يتورط فيه المسلمون. وهذه الأسباب نفسها تدفع (هنتجتون) لطرح السؤال التالي: هل يمكن أن يتم حشد تلك العوامل لتشكل صداماً حضارياً عنيفاً بين الإسلام والغرب؟ وهل من الممكن أن

---

(١) المصدر السابق.

تسبب صداماً بين الإسلام والحضارات الأخرى؟

يجيب (هنتجتون) نفسه على السؤال، ولكن إجابته تأتي في صورة تقرير مبتور يحول شك (هنتجتون) ومزاعمه المحتملة في كتاب (صدام الحضارات) باحتمال صدام محتمل بين الإسلام والحضارة الغربية كأنه يقين بعد حادث الحادي عشر من سبتمبر بقوله: «إن هذا الأمر يعد بوضوح هدف أسامة بن لادن، فلقد أعلن حرباً مقدسة ضد الولايات المتحدة، وحث المسلمين على قتل الأمريكيين دون ما هوادة أو تفرقة، وحاول جاهداً أن يقوم بتعبئة المسلمين في كل مكان من أجل تفعيل جهاده، ومن الناحية الأخرى فلقد أعلنت الولايات المتحدة حرباً كونية على الإرهاب».

«إن عناصر صدام الحضارات متوافرة، وردود الفعل تجاه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكذلك رد الفعل الأمريكي تمت في حدود الخطوط والأطر الحضارية [لصدام الحضارات] بشكل صارم»[1].

إذن بالمفهوم الأمريكي تحققت نبوءة لعبة (صدام الحضارات) كما وضعت تماماً في أجندة السياسة الأمريكية الخارجية، وكانت هذه الفقرة الأخيرة التي تحققت فيها النبوءة - التي وردت في مقال (عصر حروب المسلمين) - هي الإضافة الوحيدة لمضمون كتاب (صدام الحضارات)، وكأن (هنتجتون) أراد أن يبسط في كتاب (صدام الحضارات) النظرية وبراهينها، ويرجئ النتيجة - حتى يأتي حدث يوافقها - لكي تكون نتيجة مبررة، وكان الحدث الجلل في الحادي عشر من سبتمبر ذريعة لها، وذريعة لضرب العالم الإسلامي تبدأ من أفغانستان.

إن الحوادث مرتبة بدقة في (الأجندة الأمريكية) وينتظر كل حدث دوره للظهور في الوقت المناسب.

---

(١) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام ٢٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

إن الغرب - والولايات المتحدة بصفة خاصة لم ينظروا لصحوة العالم الإسلامي على أنها صياغة إسلامية لحركة وطنية. كذلك يخطئ العلمانيون الذين تدور عقولهم في فلك التفكير الغربي، لأنهم لم ينظروا إلى التعبير الوطني الذي تحمله هذه الحركات، بل نظروا إليها بوصفها تعبيراً ثقافياً، أكثر من وطنياً يذود عن الوطن في مواجهة العدو الأساسي المتمثل في الاستعمار، والإمبريالية: (الغربية-الأمريكية)[1] والصهيونية.

إن العالم الإسلامي يحيط بالعالم القديم في آسيا وإفريقيا وأوربا، وفي القرن العشرين بدأ الإسلام يغزو العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة، ويقدر عدد المسلمين في الولايات المتحدة، وكندا، وأمريكا الجنوبية بأكثر من عشرة ملايين نسمة. و(الغرب/ الولايات المتحدة) يخشون أن يسيطر الإسلام على العالم بحزام متين، فهو في العالم القديم يمتد بعد إفريقيا إلى غرب آسيا، إلى تركيا والجزيرة العربية وإيران ويمتد إلى الهند وباكستان وأفغانستان، وجمهوريات وسط آسيا وغرب الصين، وهذا الحزام القوي الطويل العريض يمتلك ناصية أهم الطرق البحرية والجوية في العالم، وغني بالطاقة والمواد الأولية والمحاصيل، ولو اتفق أهله على صيغة موحدة فيما بينهم صاروا أقوى تأثيراً في العالم، هكذا ينظر إليهم (الغرب/ الولايات المتحدة). وهو ما يعمل له الغرب بقيادة الولايات المتحدة ألف حساب، ويعملون بالتالي من أجل أضعافه، ومحاصرته في وسط آسيا وغربها بقواعدها في باكستان وأفغانستان. وفي إفريقيا في جنوب السودان، وفي القرن الإفريقي في الصومال، بالتحكم في حركة التفاعلات الداخلية بالصومال، بجانب دوريات كثيفة لسفن الأسطول الأمريكي لمراقبة السواحل الصومالية، وبالحشود الأثيوبية على طول الحدود المشتركة مع الصومال.

---

(١) انظر: المستشار طارق البشري: حوار معه في مجلة الشاهد، ص٤١، عدد فبراير ٢٠٠٢م.

أما الغرب الآسيوي العربي، فإن الوجود (الصهيوني الفاشي/ النازي) كفيل بأن يعوق مسيرة التقدم فيه، كما يريد (الغرب/ الولايات المتحدة الأمريكية).

ليكتب (فوكوياما) و(هنتجتون) وينظران لضرب كل القوى المناوئة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وتدمير أي شعب، أياً كانت الحضارة التي ينتمي إليها، حتى ولو كان صديقاً للولايات المتحدة بالمفهوم البرجماتي، حيث تنتهي الصداقة يوم تنعدم المصلحة[1].

إن الدور الآن على بلاد المسلمين، وكان قبلها على اليابان، وقد يكون بعدها على الصين أو الهند، بشرط أن تظل القوة الإمبريالية الغربية عفية قوية تجني الثمار، وسيكون رد الفعل الأمريكي بحسب تعبير أحد المنظرين الأمريكيين قد تم في حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صارم.

---

(١) **تم تدمير شعب أفغانستان وتمزيقه ثمناً لتحقيق مصالح الولايات المتحدة مرتين:**

الأولى: عندما هزم الاتحاد السوفييتي في حرب أخذت طابعاً إسلامياً، فمهد لتفكيكه وإنهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، التي لم تستطع الولايات المتحدة ومعها حلف الناتو أن تقضي عليها في خلال نصف قرن.

والمرة الثانية: عندما بحثت الولايات المتحدة عن ذريعة لضرب العالم الإسلامي، وبدأت بأفغانستان معقل المجاهدين المسلمين الذين انتهى دورهم بهزيمة الاتحاد السوفييتي، وتحولوا برأي الولايات المتحدة إلى إرهابيين مسلمين. وهذا يؤكد اختفاء جميع الدوافع الأخلاقية عند الولايات المتحدة، لتحل محلها الدوافع الذرائعية النفعية.